قصص قصيرة

مواطن
في مهمة انتحارية

بقلم
فتحي سلامة



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٥

مواطن فى مهمة انتحارية

وقف ينتظر ، طال انتظاره ، تململ فى وقفته ، رأى على البعد قطارا قادما ، كان القطار مسرعا فمضى يتابعه بنظره حتى اقترب منه وداسه بعجلاته الحديدية · عرف الآن كم للقطار من عجلات · ولماذا تحدث صوتا رتيبا خلال سيرها · الحمار يدق بحوافره مثل الحصان عندما يمشى ولكن يمكن تمييز دقة رجل الحمار عن دقة رجل الحصان · وأيضا للبقـر والجاموس دقات رتيبة بحوافرها اذا مشت · عيون البقرة بلهاء واسعة · ليس لعيون الجاموس جمال عيون البقرة · الجاموس يأكل البرسيم فى شراهة وحماس · وقد رآها وهى تحش البرسيم حشـا · سأل الساعى اليوم أن يأتيـه بطعام ، ولكن الساعى لم يحضر · قال لنفسه ان الساعى لم يسمع· عندما خرج من البيت قرأ ما تيسر من القرآن الكريم ودعـا الله التوفيق ، ثم مسح بيديه على وجهه ·

اختل توازنه وكاد يسقط من أعلى السلم · تماسك سريعا وأمسك بمسند السلم · قال للرجـــل الواقف بجواره على محطة

الأوتوبيس : صباح الخير · لم يرد الرجل ولم يهتم هو بالجواب ·· كانت زوجته قد رجته أن يعود سريعا من العمل · ابتسم فى سره لأن لا عمل هناك · لا شىء ، حتى انه أحيانا كثيرة ينسى اسمه · هذه الأشياء لا نستخدمها كثيرا · جوارح الانســـان فى حاجـــة للتدريب المستمر · لهذا نفقد البصر والسمع والشم لعدم التدريب· قالت زميلته وهى تضحك ، أتحداك ان تحصل لزوجتك على طلبات البيت · قال فى اصرار : ســـأفعل ·· عندما عاد الى بيته كان ، وائل ، قد خرج للحياة ، أربعة ، نحن الآن أربعة · صاح وهو يخلع القميص ، أطل من النافذة وصرخ فى الجيران ·· ابعثوا الينـــــا بتحياتكم · لم يسمعه أحد ·· اليوم لا يسمعه أحد · الساعى ، وزميلته ، والجيران وأيضا زوجته ، قرر ان يفعل شيئا ، وأن يقول أنا هنا ·· خرج الى السلم وصاح مناديا ، يا محمود ··

لم يرد أحد · يعلم أنه لا وجود لمحمود هذا ·· مجرد اسم اخترعه · كثيرا ما يلعب هذه اللعبة · ينادى على البائع الذى أمامه باسم ما · يجيب الرجل أو لا يجيب لايهمه · ينادى على جرسون المقهى ·· يا عبده ·· انت يا عبده ·· ويأتى عبـــده ويحضر له القهوة · هو عبده أو له اسم آخر ، غير مهم · انه يجلس على المقهى كل ثلاثة أشهر مرة واحدة · من باب التجربة · يفعل مثل الناس ، يقف ويتحرك ·

وأحيانا يشترك فى الحديث مع الآخرين فى العمل أو فى المقهى أو على محطة السيارات · يجادل مثلهم ، يقول أشياء لا يؤمن بها ، بل لا يفكر فيها كثيرا ، انما يختار جانبا وينحاز له · وأحيانا يعترض على كل الآراء · فاذا التفت الناس اليه لكى يشرح اعتراضه أو وجهة نظره · توقف عن الكلام ، ثم يتسلل منسحبا · يهوى التسلل · فى صغره كان يتسلل الى حديقة الجيران ، لكى يأكل حبات المانجو المتساقط · وفى المدرسة كان يتسلل من الفصل ،

ويجلس وحيدا على رصيف الشارع أمام دكان الحلوانى ، يتفرج ، يتأمل ، حقا انه لم يكن يتأمل شيئا محددا • كان الجيران يقولون عنه لامه انه ولد عاقل • وأحيانا تصفه السيدة ذات الشعر المدهون بأنه مؤدب مثل البنات • كانت تسعده الكلمات ، فيزداد أدبا ، ويكثر من التأمل حتى اذا سنحت له الفرصة استغلها ، وهكذا تزوج • ظل يتأمل وضع بنت الجيران • فسدت خطبتها أكثر من مرة • تألمت الأم • كانت تشكو لكل الناس من سوء حظ ابنتها • قالت ذات مرة سأعطى من يتزوجها كل ما أملك من مال ، تزوجها • لم تكن أم زوجته ذات مال • كانت ذات مرض • ظلت مقيمة عند بنتها حتى ماتت • كان هو قد ترقى فى السلم الوظيفى صار رئيسا لمكتب ما ، لا يعلم كيف ولكنه هكذا وجد نفسه • انه لم يفكر فى النجاح ولكنه نجح • حصل على الشهادة العالية ، وزغردت النساء ، ودارت أكواب الشربات على الجيران • رأى على البعد سيارة مقبلة وأخذ لنفسه وضع استعداد • تدرب على هذا الاستعداد طيلة سنوات عديدة • هناك مواقف تظهر فيها مواهب الرجال يجيدها أمثاله ، ويتقنها هو بشكل خاص •• منها التسلل فى المصلحة •• أول من يقف فى طابور تسلم المرتبات • وأول من يوقع أمام الصراف • ثم يجلس بعيدا وكأنه لم يتسلم راتبه بعد • والانقضاض على الأوتوبيس والانزلاق داخله ثم الوقوف وقد ارتسمت على ملامحه كل مظاهر البراءة والظلم وأحيانا التعاسة ، وأحيانا يتأفف من جارته التى تصر على أن تتسلل واقفة أمامه • والكثير من هذه الأفعال ، بل تعلم الكثير من الكلمات تقال فى العديد من المناسبات تظهره بمظهر العالم المتبحر فى علوم اللياقة وحسن الأدب ، وأيضا تكسبه مظاهر الاحترام • قفز الى السيارة واندس داخلها وراح يراقب المحصل • قاس فى عقله المسافة الى بيته والمدة الكافية للوصول والعلاقة بين تحرك الأوتوبيس ، وتحرك المحصل نحوه ، استراح وارتدى قناع التائه المظلوم •

ولم يعترض هذه المرة على التصاق السيدة الريفيـــة بجانبه الأيمن ، بل أعطاها المزيد من عدم الاهتمام • فجأة تذكر زوجته • قال لزميلته انه ليس سلبيا كما تصفه وانه مهاجم شرس وان صمته وسكوته يخفيان فورانا من التدبر والحكمة وأيضا يخفيان مظاهر الشجاعة التى يتحلى بها ، وقال لزميلته انه سوف يبرهن لها على حسن لياقته العسكرية وقت الأزمات •

صاحت زوجته والألم يخنقها ، انصرف يا رجل • دار حول نفسه عدة دورات ، ثم عاد بوجهه الى زوجته ، التى أطلقت سيلا من الصراخ الحاد ، ثم ارتمت على الفراش فاقدة الوعى • لم يجد من يأمره بالفعل • كان عليه أن يفعل هو من تلقاء نفسه • جرى حتى بيت زميلته ، كانت فرائصـــه ترتعد من الخوف والقلق ، لم يقدر على أن يقول كل شىء • أسرعت زميلته وزوجها لنجدة زوجته • تذكر أنه فى هذه الحالة يجب أن يبـــدو مرتبكا • أسرع بارتداء قناع الارتباك وأعطاه زوج زميلته حقه فى التخفيف عنه ، خرجت زميلته وطلبت منهما الانصراف • وعندما عاد من عمله وجد ابنـــه الثانى قد جاء ونام فى الجزء المخصص له من الفراش • وجد نفسه فى حيرة حقيقية • قال انه رجل وانه قادر على المقاومة • وبحث فى جيوبه عن سلاح • قالت الزوجـــة التى هدها الألم ، وأضعفتها متاعب الولادة : اذهب وابحث لنـــا عن طعام ، قال لزميلته : نعم سأفعل • • اننى فقط كنت أترك لهـــا هذه الأمور لكى تتسلى • أما الآن ، فالويل لكل من يعترض • قال ان الأمر هين ، وان ما تدعيه زميلته مجرد تشويش وأكاذيب وتحايل من أجل ضرب الرجل فى الصميم • وقام من فوره وحمل كل المعدات اللازمة • وعندما أصبح خارج الدار تحسس كل أسلحته وراجع فى عقله كل الخطط وخاصة تلك التى وضعتها زميلته • وكان قد سمع بعضا منها من زوجته ، وخرج الى الشارع •

لم يكن يقصد أن يهين الرجل ، ولكنه سأله بأدب عن الفرق بين السعر المعلن على باب المحل وبصورة لافتة ، والسعر الذى يطلبه • كان مؤدبا للغاية وهو يسأل ، بل انه كان يبتسم مشجعا الرجل كى يبوح له بالسر • كان فى قرارة نفسه يؤمن بأن هناك فرقا واضحا بين السعرين وبالتالى بين صنفى اللحمة التى اشتراها• كان يكفيه أن يقول للرجل كلاما ، مجرد كلمات يومىء بعدها برأسه• وقد تظاهر بأنه قد فهم الآن السر • فيدفع سريعا وينطلق وقد تظاهر بالسعادة لأنه اشترى من هذا الرجل الأمين • ولكن الرجل لم يكن يجيد لعبة التسلل • فاجأه بلكزة فى صدره جعلته ينكفىء بشدة • فلما اعتدل كانت عيون الآخرين تحاصره ، تتأمله • أحس بالهوان •• فاطلق للسانه حرية التعبير • كانت هذه أول مرة يلعب دورا هاما فى حادثة يشاهدها الناس • قذفه الرجل بقطعة حديد • أطلق هو سيلا من السباب والشتائم ولكنه أحس خلال اطلاقه لسيل الشتائم بالألم فى صدره وان قواه تخور • قرر المقاومة ولكنه استراح والناس تجذبه خارج المحل • تحسس جيوبه وأعاد ترتيب أسلحته •• وانطلق وقد علمته التجربة مدركات عقلية جديدة • لهذا وقف بعيدا عن الرجل وسأله فى أدب ممزوج باللباقة وكأنه يتواضع عن ارادة ، ان يعطيه قطعة جيدة • لم يلتفت اليه الرجل ومضى يعد له ما طلب • وعندما طالبه بالثمن دفع دون مناقشة • ولكنه اكتشف أن ما معه من نقود قد نقص كثيرا • وان عليه من الآن ان يكون حريصا حتى لا يبذر ما بقى دون ان يأتى لأسرته بالطعام المطلوب •

واقترب من البائع ، كان رجلا بشوشا يغنى ، ويدور حول عربته وكأنه يبيع اللؤلؤ المكنون • قال فى نفسه هذا رجل طيب ، سأرتدى قناع المسئول • هات يا رجل من هذا الصنف ، وأسرع الرجل ، ثم أعطنى من هذا الصنف • وازدادت لهجته عنفا • رحب

الرجل وأسرع بتلبية الأوامر وكان دوما يزيد من عنده حتى يشبع العيال كما كان يردد · وجاء وقت الحساب ، خذ هذا حقك بالتمام بعد اجراء مختلف الحســابات بالدقة اللازمة · لم يكن يحسب حساب مزاج هذا البائع المتقلب الذى كان يغنى على بضاعته وكان ينعته فى كل لحظة بأوصــاف الكمال والاكرام · انقلب البائع وحشا ، وأمسكه من رقبته وخطف كل ما معه ثم لكزه بقوة مرددا الثمن الذى يريده لم يكن معه · وما كاد البائع يعرف هذا حتى راح يكيل له من السباب ألوانا وهو يدفعه بعيدا ·

قال لزميلتــه لا يغرنك هذا الصمت ولا هذا السكون ، أنا شمشون ، أنا الذى قال لا ·· أنا رجــل الشدائد · ضحكت زميلته فى سخرية ·· أشارت اليه زوجته ان يصمت وان يكفى على الخبر ولا يذيعه · وقالت أمه هذا نصيبى من الدنيا فيك ·· لا ·· لن يعود الى داره دون طعام · من قاتلنى قتلته · ومن مات دون ماله فهو شهيد ومن مات دون ·· انتفض قائما على الأرض · اندفع نحو البائع مرددا شعارات النصر ·انقض على الأكياس ولكن البائع لم يمهله ، فقد دفعه فى عنف مرة أخرى · دار حول نفسه ، استجمع قواه · لم يعد ينظر الى المتفرجين · لم تعد تعنيه بطولات الأحداث · كان صوت زوجته يرن فى أذنه وضحكات زميلته تسيطر عليه · لم يعد ذلك الموظف المطحون قط · بل لم يعد ذلك الطالب الموضوع فى آخر الصف · لم يعد هذا الكائن الذى يحركه الآخرون · انه اليوم فاعل ــ فاعل مرفوع بالذات المضـــمومة ــ خذ يا رجل هذه الضربة فى رأسك · أيها البائع الغشاش المتغطرس · أنت لم تخف من ضميرك ، ولا من عقاب السماء · لم تخف من الشرطى ولا من القانون · جئت متسولا من قريتك منذ عام ، فاذا أنت الآمر الناهى فى حياتنا · بسببك أنت ماتت ابنتى · نعم أنت قاتل ابنتى · لم نجد لها طعاما ، ماتت ·· خذ يا عدو الله · ولم نعد عبيدكم

أيها الباعة ٠ نحن خلقنا أحرارا ، وسنعيش أحرارا ونموت أحرارا ٠٠ خذ ٠٠ وتمدد على أرض الشارع ٠ وتجمهروا مثلما كان يفعل هو فعل الناس ٠ تفرجوا حتى شبعوا ثم مضوا الى بيوتهم ، وكأن شيئا لم يكن ٠ وبعد قليل حملوه الى مدفنه ٠٠

الأهرام المسائى

١٩٩١/٦/٢٦

لن تسرق ذاكــرتى

من السهل أن أخبرك بكل شيء تسأل عنه • عليك فقط أن تسأل وأنا أجيبك • لن تسرق ذاكرتى مهما حاولت ، أنا أتحداك • حرصت طوال حياتى على تدريبها • كنت أزاول تدريب الذاكـرة صباح كل يـوم • أعد درجـــات السلم ، وأحصى نوافذ البيوت المجاورة ، ثم أستعيد العد والاحصاء معتمدا على ذاكرتى • وأحيانا أعقد امتحانا لذاكرتى •• كم مضى من العمر • أذكر ذلك مبينـــا بالساعات والدقائق ••

ـ هل أنت متأكد أنها خطيبتك •• ؟

ـ نعـــم ••

نظر أمين الشرطة الى الحقيبة ، وقال :

ـ وماذا بها ، صف ما بداخلها ••

هل هذا امتحان لذاكرتى •• حسنا لن تستطيعوا •• قلت فى ثبـــات :

ـ أربعة ملفات بها أوراق مدون عليها ..

قاطعنى فى ســـخرية :

ـ غير هذا .. اذكر الأشياء ..

يجب أن أتمالك نفسى ، قلت :

ـ مجموعة من أقلام الحبر ، زرقاء وحمراء وألوان مختلفة .. وحافظة نقود .. وأيضا مجموعة بطاقات .. بطاقة التموين وبطاقة الكساء الشعبى ، وأيضا بطاقة .. أقصد دفتر البقال ..

قال فى ضيق : ـ فقط ..

مهما حاولوا لن يفلحوا معى ، كنت أود أن أصفعه . قلت له فى البداية ان ذاكرتى قوية ، قال فى تحد :

ـ ألا يوجد شىء آخر فى الحقيبة .. ؟

قلت بسرعة : عقد زواجى .. هل هذا يكفى لكى أثبت لك أن هذه الحقيبة تخصنى .. يجب ألا تنظر الى وجهى مباشرة ، الأيام هى التى حولتنى لهذه الصورة فلا تسخر منى ..

قال أمين الشرطة : لا ذنب لى ، صاحبة البيت هى التى لاتعترف بحقك فى الشقة .

صرخت زوجتى ، واندفعت نحو أمين الشرطة الذى تراجع الى الخلف . كان صوتها عاليا :

ـ هذا الرجل زوجى ، كيف تجرؤ صاحبة البيت أن تقول هــذا .. ؟!

قال أمين الشرطة : يجب أن تخرجا من الشقة ، هذا أمر . عندما أطلقوا الرصــاص على سيارة الدكتــور محجوب ، قلت لأمين الشرطة :

ـ أعطني هذا المسدس ٠٠

قالت زوجتي :

ـ لن نخرج من هذا البيت ، هنا ولدت ، وتربيت ، وتزوجت، وهنا مات أبي ٠٠ كان نائما في هذا المكان ، وكنت أقف أمام المرآة وسمعت صوته ، جريت ٠٠ جريت ولكنه كان قد مات ٠٠

قلت في أسى :

ـ ذبحوه ٠٠ مع ان حسن البنا كان ٠٠

قالت زوجتي وهي تمسك بكتف أمين الشرطة :

ـ انظر الى هذا الرجل ، زوجي ، ألا تراه طيبا ودودا ، كان طيبا ودودا ولكنه تغير ، سحرته الفتاة الصغيرة ٠٠

المأذون في ضيق :

ـ ماذا تطلبون ٠٠ ؟

كنت وأخي قد أحضرناه من منزله ٠ كان نائمـــا وأيقظتـه زوجته ٠ ظلت توصيني وأخي بالصبر حتى استيقظ ، خرج علينا وهو يغالب النعاس ، وعندما دخل الى مكتبه دخلت خلفه ووقف أخي خلفي ٠

قالت زوجتي : ـ أريد الطلاق ٠٠

أشار الرجل الى الدولاب الأســود ، وقال في أمر : ـ أحضر الدفتر الكبير ٠

أحضرته ، قال :

ـ افتحه عند آخر سطر مكتوب واكتب اســـمك وعنوانك وعمرك وعملك ٠٠

قلت وأنا أبتسم : ولكني أنا ٠٠

قاطعني في غضب ، لاحظت أنه يكــاد لا يرى ، شـــعرت بالاشفاق ، قال :

ـ اكتب بخط واضح وبدقة ٠٠

ســــألت نفسى عن سبب وجودنا فى هذا المكتب أنا وأخى وزوجتى وشقيقتها ، أعترف ان ذاكرتى أحيـــانا تتكاســـل ، نعم تذكرت ، كان هناك معنا شقيقها أيضـــا ، وكان صامتا ، سألته فى ود :

ـ ماذا فعلت (ايمى) فى الامتحان الأخير ؟

قال فى لهفة :

ـ ندعو الله أن تنجح ٠٠

رفعت يدى بالدعاء ٠ راح يشرح لى ماذا يفعل لابنته الوحيدة ٠ كان الحديث يسعده ، ماذا تفعل فى هذا المكتب ، ارهاق الانتظار والنداء على الرجل كل لحظة بصوت عال هدنى ، رغبت فى النوم ، نظرت الى زوجتى ، انتابنى الغيظ من ذاكرتى ٠ قال المأذون فى بـــلادة :

ـ هل لك مطالب نحوه ٠٠ ؟

قالت زوجتى وهى تغالب نفسها من الضحك :

ـ ولكنك لا تتصور ماذا حدث بعد ان نسيت حقيبتك أمام البيت ٠٠ انه أمر مسل جدا ٠

قال المأذون : اكتب ما أمليه عليك ٠٠

قلت فى دهشة : كل هذا من أجل حقيبتى ٠٠ !

قالت زوجتى : ثم جاءت ثلاث عربات هبط منها جند كثير ، وتشاور ضابطان وهما ينظران الى ٠٠ الى حقيبتى ٠٠

أكملت زوجتى فى سعادة : نعم ‥ كانت عربات الاطفاء قد وقفت تسد الشارع ، والناس فى رعب قاتل ولكنهـــم يحـاولون الاقتراب ٠

ــ من حقيبتى ‥

ــ حتى جاءت عربة سوداء وهبط منها رجل قالوا عنه انه خبير المفرقعات ‥

قال المأذون : اكتب ما تنطق به هذه السيدة ٠

قلت فى لهفة : ماذا وجد خبير المفرقعات فى حقيبتى ‥

قالت زوجتى فى تخابث وسخرية : ماذا تظن أنت ؟! ٠

قلت فى غيظ : تعرفين أن حقيبتى ليس بها الا تلك الأوراق التى أكتبها ‥ أنت تعلمين هذا منذ عشرين عاما ، فماذا حـــدث اليـــوم ‥ ؟

صرخت زوجتى فى غضب :

ــ أريد الطلاق ‥

قلت فى هدوء : أنا لا أصدق ‥ لا يوجد بحقيبتى ما يستدعى كل هذا ‥

قال أمين الشرطة : كنت أعرف أنها حقيبتك ، وقلت للضابط انى أعرف صاحب هذه الحقيبة ‥

هتفت فى سعادة : تعرفنى حقا ‥

ــ أتابع مقالاتك وقصصك بشغف كبير ، اننى أيضا أكتب القصة ‥ انظر ٠

قال المأذون وهو يجفف دموعه : اقرأ لى ما كتبت ‥

قلت وأنا لا أزال أضحك ساخرا : كتبت كل ما أمرت به ..

قال المأذون فى تأكيد : دع هذه الســيدة توقع أمامك فى المكان المحدد ..

قال أمين الشرطة : ماذا ترى .. هل أنا أجيد الكتابة .. ؟

قلت فى تبرم : هل آخذ حقيبتى الآن .. ؟

- للأسف لا تستطيع .. عليك أولا مقابلة وكيل النيابة ، صرخت فى غيظ .. لماذا .. ؟

قالت زوجتى فى عصبية : لم أعد أتحمل .. لم أعد أطيق .. أنت أتلفت حياتى ، قتلتنى نكدا وغيظا . جعلت من حياتى نهــرا من الجحيم ..

.. وقالت كثيرا ، أقصد لم أحاول حفظ ما قالته ، لا .. أعتقد اننى نسيت وأذكر اننى أوقعت العقاب على ذاكرتى ، كيف فاتنى أن ألحظ هذا التغيير .. فى صوتها ، فى شكلها ، كنت أحصى نوافذ الجيران فلا أخطىء . أغمض عينى وأردد درجات السلم الذى أصعده لأول مرة . كنت أدخل حجرتى وهى مظلمة فلا أجد صعوبة فى الاهتداء الى حاجاتى . ها هو ذا كتاب الأمثال على مقعدى فى الركن . وها هو ذا قلمى ونظارتى . كل أشيائى أحفظ مكانها . بل كانت زوجتى تسألنى عن مفقوداتها .. سوف تجدين فتاحة العلب بجوار الحذاء البنى فى حجرة النوم ، وعندما كانت تصمت أعرف انها وجدت ما تبحث عنه .

قال المأذون : أعطها حقها .. ثلاثين فى ثلاثة ..

قلت مقاطعا : لا داعى لهذا ، فقد أعطيتها حتى استكفت ..

قال أخى فى تذمر :

- دعنا نمضى من هنا ..

قالت زوجتى وهى تضحك فى طفولة :

ـ أخيرا ·· فتح خبير المفرقعات الحقيبة ·· وساد الصمت المكان ·· ولكن الخبير رفع رأسه ثم قام وانصرف ·· هل تتصور هذا ··

قلت فى أسى : لا ·· لم أكن أتصور ··

قالت فى حماس : لمجرد أنك نسيتها فى الشارع أمام البيت ·· هل تتخيل أن تفعل حقيبتك كل هذا الفزع ، وتأتى كل هذه القوات ·· ثم بعد هذا لا يجدون الا أوراقا ··

صرخت : انها قصصى ·· وليست مجرد أوراق ··

ولكنها راحت تضحك فى سخرية ، وتدور حولى وهى تكاد تدوسنى ، ثم توقفت فجأة وهى تقول بصوت ممطوط : فى النهاية أوراق عديمة القيمة ·· مثلك ··

كتمت غيظى ·· اختفت ، وحاولت ايقاظ ذاكرتى ··

كانت الصور باهتة ، ورمال الشاطىء لا تزال باردة ، والماء فى البحر ساكنا ، ولباس البحر على عروستى ، وأنا أغنى ، دفعتها ، سقطنا فى الماء ، نغطس ثم نطفو ، ونطفو ثم نغطس ، لا أحد على الشاطىء ، لا أحد فى الماء ، الماء لونه أبيض · والرمل لونه أبيض ، وبشرة زوجتى بيضاء ويدى بيضاء · اندفعت نحوها ، أخذتهــا وهبطت الى القاع · صرخت ، تركتها تفلت ، شهقت عندما أدركت هواء السطح ثم انفجرت ضاحكة · أسعدتها اللعبة · راحت تشجعنى لكى أعيد اللعبة ·· ولكنها صرخت فى رعب وقالت :

ـ كفى ·· لم أعد أطيق ·· طلقنى ··

هززت رأسى بقوة ، أحيانا أسمع صوت عبد الوهاب يغنى ·· أبحث عن مصدر الصوت فلا أجده · وذات مرة ســـمعت صــوت

عبد الناصر ٠٠ مضى عهد الاستعمار ٠٠ بحثت عن الاستعمار فلم أجده ٠ وأحيانا أخرى أسمع نفسى وأنا أتكلم ٠ قال وكيل النيابة :

ـ ماذا كنت تقصد بتركك الحقيبة أمام المبنى ٠٠ ؟

نظرت اليه فى شك ٠٠ اكتفيت بالصمت ٠ كان غاندى يصمت ، قالت زوجتى :

ـ جعلت حياتى جحيما ٠٠

أنا الذى فعلت هذا ، أنا الذى فرشت لك ضلوعى لتنامى عليها وغطيتك بجفونى ، وحملتك فوق قلبى ، وتوجتك ملكة على حياتى ٠٠

ـ أنت متهم بتدبير انقلاب ٠٠

صرخت بقوة : لا ٠٠ أرجوك هذه اللعبة لا أريدها ٠٠

ـ تكلم اذن ٠٠ من هم شركاؤك ، ما هى الجهة التى تمولكم ٠٠؟

ـ يا سيادة الوكيل ، يا سعادة الباشا ، يا حضرة القاضى ، يا فخامة الانسان ، ان حقيبتى خالية ، مجرد أوراق ٠٠ تصور يا سعادة البيك ، سعادة الخبير وجد بها أوراقا ٠٠ فقط ٠٠

قال وكيل النيابة : وماذا كنت تتوقع ياسيد ٠٠ ؟

قلت فى توسل : أتوقع العدل ٠٠ الرحمة ٠٠ الرأفة ٠٠

قال المأذون : وقع أنت أيضا ٠٠ بخط واضح وباسمك الكامل ٠٠

قال : هل لديك أقوال أخرى ٠٠ ؟

ـ نعم لدى أقوال أخرى ٠٠ وكثيرة ، ومتعددة ٠٠ هل تتذكر عندما ذهبنا الى الشاطىء ٠٠ ؟

قال في حسم : لن يفيدك هذا ·· اختصر ··

قلت : وعندما ذهبنا الى ·· الى الحـرم وطفنا وقرأنا ··

وعندما جرينا ·· ولعبنا ·· واشترينا ·· وأكلنا ·· ولهونا ·· وتشاجرنا تحت المطر ·

قال المأذون : يا ولدى لا تفعل هذا ·· ان هذا سجل رسمي لا يصح العبث به ··

ولكنى أدافع عن نفسى ·· عن وجودى كيف مات عبد الناصر ·· من قال هذا ·· وبكيت وجريت في الشوارع أصرخ ·· لا ·· لاتقولوا مات ·· بل عاش الوطن ·

قال أخي : دعنا ننصرف ·

قالت زوجتي وهي تبكى : يا سيادة الوكيل ، زوجي برىء انه لا يمكن أن يفعل شيئا من هذا · انه مجرد رجل طيب ، رجل على الورق · أنا أعرف ·· عشرون عاما وأنا آراه يبكى أثناء النوم · انه طفل يخاف الليل وظلام الحجرات بالنهار · انه ··

قال أمين الشرطة : كنت على ثقة من براءتك ، أنت أستاذ ·· أستاذ عظيم ، وأنا أقرأ كل ما تكتب ·

قلت : وهل تطلقون سراحي ·· ؟

قال المأذون : لا أريد أن تقص على شـــيئا ·· اخرج من مكتبى ··

وعندما وصلت الى سيارتي ، كانت زوجتي تقف بجواري · فتحت لها الباب · صرخت شقيقتها في ولولة ·· لم يعد زوجك ، وجذبني أخي من ذراعي ··

قلت لزوجتي : لماذا أمروا بحبسي ·· ؟

لم ترد ، قلت فى الحاح : ألم يقل خبير المفرقعات انها مجرد أوراق • والقاضي قال ان المسكن من حقكم قانونا •• فلماذا فعلوا بنا هذا •• ؟

جاءت شقيقتها وأمسكت بيد زوجتى وأخذتها بعيدا • بكت زوجتى فى مرارة • قلت لأخى وأنا أقود السيارة : تصور •• حقيبتى فعلت كل هذا •• كل هذا العدد من رجال الأمن ، وكل هذا العدد من الخبراء •• وكل تلك الأجهزة ، وآلاف الأوراق والمستندات وجلسات التحقيق ، وأخيرا لم يجدوا بها الا أوراقا •• مجرد أوراق •• أوراق عديمة القيمة ••

قالت ابنتى فى تبرم : لماذا يا أبى تترك طعامك حتى يبرد ••؟

قلت فى حماس : أنا لم أنس شيئا •• أنا أفخر بذاكرتى •• ولكى أثبت لك قوة ذاكرتى •• اليوم •• هو يوم •• ليس مهما اسم اليوم انه مكتوب على نتيجة الحائط ، المهم اننى مازلت أذكر •• أن اسمى •• وهذا أيضا غير مهم •• انه حق مدون فى بطاقتى •• والبطاقة فى حقيبتى ، وحقيبتى عند الشرطة ••

قالت ابنتى : لماذا دائما تتذكر هذا الحـــادث ، انه مجرد حادث ومضى •• ؟

قلت ضاحكا فى مرح : أعلم ذلك •• وأعلم أيضا أن اليوم هو موعدنا مع وكيل النيابة وأنا مستعد للاجابة عن كل أسئلته •

سأقول له •• ينفجـــر جسدى ضـــاحكا ، لم أعد أستطيع السيطرة على أطرافى ، وقفت أصرخ :

ـ نعم يا ســـــيادة الوكيل •• تذكرت الآن •• فى حقيبتى بطاقة توصية لناشر كبير •• وفى بيتنا يسكن مناضل كبير •• نعم سكنه أسفل مسكننا • انه مناضل عربى كبير ••

دثرتنى ابنتى بغطاء ثقيل وهى تقول :

ــ ألم تتذكر هذا الا الآن ، وبعد فوات الأوان ؟! •

قلت فى حماس دافعا الغطاء : نعم •• تذكرت •• وعرفت لماذا طردونا من بيتنا •• وضعتنى ابنتى فى الفراش ، قالت وهى تبتسم : تمسك يا أبى بذاكرتك •

واحتضنت حقيبتى بقوة •• ونمت ••

مجلة أكتوبر ١٩٩١/٨/١٧

أبى .. أحبـــك

ـ هو فى الخارج ..

ـ عادت من الخارج ولزمت حجرتهـا . الضوء المتسرب من أسفل باب الحجرة ظل يعلن وجودها المستيقظ . لم يحاول الاب أن يخدش حياء الصمت الذى يغلف ابنته . جلس فى الصالة وراح يقرأ بعينيه كتابا كان قد وجده فى الصباح عند صديق له . كانت الحروف سوداء صغيرة ، مثل نقش أسود على حجر أبيض . والعين تسير فوق النقوش ، تتدحرج مع الحروف الهابطة الى أسفل وتنزلق فوق الحروف المستطيلة ، ثم تقع فى بؤر النقط المرقومة . اليد اليمنى تمسك بالكتاب مفتوحا ، واليسرى تعيد النظارة سميكة العدسات الى أرنبة الأنف . ولكن العقل هناك والفكر هناك والوجدان هناك فى تلك الحجرة ، فوق مقعد مستطيل من الجلد الأملس . تجلس الآن ، وبجوارها مصباح قوى الاضاءة ، وأمامها مجموعة من الكتب . ثم سريرها المعدنى ، ووسائده المبعثرة دائما ، وحزمة من الفساتين الملونة مخنوقة على مسمار فى باب الحجرة . وعلب ورقية

بها أحذية مختلفة الطرز · وأجهزة اذاعة مدلاة الأسلاك ، وأشرطة وبراويز صور ، وأقلام ، وأوراق ، وشـــباشب وأردية للحمام ، وحـــامل لعلب الدواء ، ومجموعة من الدمى والعرائس الصغيرة ، سكنت ، وتركت التراب يغطيها ·· فقد القرد فرصته ، وسكت العروس عند النداء ، ومال الحصان على الجنب · وركنت السيارة بعد أن انخلع منها نصف عجلاتها ، وساعة انكفأت على وجهها · وتذكارات من بلدان مختلفة · ومجموعة من الزلط والحصى وسمكة محنطة ، ودولاب خشبي امتلأت واجهته بصور الحيوانات ونباتات ومعالم مدن ، وعلامات تجارية ، وأرقام · وامتلأ جوفه بأشـــياء مختلفة · وفوق الدولاب حقائب · وفي الحقائب ملابس وفي تلك الملابس تلكأت ذاكـــرة الأب (من أجلك يا زيتوني اللون وقعت استمارة القرض · وأنت يا مجنون الألوان · كان ثمنك ليالي طويلة من السهر فوق الأوراق · وأنت يا قادم من بلاد الشـــمال دفعت ثمنك عرقا تدفق من جسدي طوال شـــهر كامل · أنتم يا أردية الحنان ، كم تساوون الآن ·· وهي خاصمتني ، وهجرتني · عادت وأغلقت بابها خلفها ، ولم تقل لي كلمة واحدة) ·· ويسقط الكتاب من اليد اليمنى للأب ·

ـ من داخل الحجرة هي :

ـ كانت ندوة سقيمة ، يقولون ويقولون ، لا شيء غير القول ، حتى الكتب قول مأثور ، كلمات سجنها الكتاب وحروف المطابع ، لا فعل ، لا شيء يتحرك ، مثـــل الدمى التي كفت عن الحركة · الحصان سقط على جنبه ولم يعد يتحرك · والعروس انهارت قواها ولم تعد تنادي على أحد · ربما استراحت تلك العروس الى وضعها الصامت · ماذا لو صمت الكل · ماذا لو عم الصمت المدينة ·· انخرست الألسنة وكفت عن الثرثرة · الراديو الذي يعوي مثـــل الكلب الملســـوع · وأســـاتذة تلهث خلف مكافأة المحاضرات · لا يا ولدي · دع الخلق للخالق · دنيا ليس لها صاحب · ثم قال

أبى ٠٠ مسكين أبى عاش فى قفص لا يعرف ٠٠ دفن حياته بين ورق الوظيفة وورق الكتب ، فتحول الى كائن لا يملك الا شعارات ٠ ولكن الشعارات يا أبى تجمدت ٠ تحولت الى حجارة من رفعها انقضت عليه فمات ٠ وأنا يا أبى لا أريد الموت الآن ٠ قال أبى لن أسمح لك بعد اليوم ٠

فى الصالة هو :

كان يحلم ، عاودته أحلام طفولته ٠ ورأى جلباب أبيه ، وسمع صوته وهو يصلى ، ثم جاءت اليه أمه وقدمت اليه (كوز) اللبن ، شربه ٠ كان اللبن دافئا وصدر أمه دافئــا ٠ وبعد أن فرغ أبوه من الصلاة ، جاء ، كان كلامه دافئا ٠ وضع يده على رأسه وسأل الله له الصلاح ٠ القناعة كنز لايفنى ٠ والدعاء عقل العبادة ٠ وكل شىء عند الله ، اســأله يعطك ٠ الله محيط عليم ٠ ونحن فقراء والله وحده الغنى ٠ كان الصــوت دافئا ، والقلب دافئا ٠ والأيام أمان ٠ والناس صيام ، وعلى الحق قيام ٠ وحرارة الخبز الخارج توا من الأفران ، تدفىء قلب الجوعان ٠ وطيف الأم يحيط بطفل بلغ (دون أن يدرى) الخمسين وتخطاها بعام ٠

والآن معــا ٠٠

خرجت من عزلتها عاقدة الهمة على أن توقظـه من أحــلام الشعارات ، وتقول له ان السقا قد مات ٠ وان ما فات لا يرجع الا اذا رجع الأموات ٠ والدنيا اليوم لمن يجيد اللف والدوران حول الكلمة الزائفة ، ويحولها الى برهان ٠ وان الحياة اليوم لمن يعشق رائحة الدخان ٠ ويجالس الندمان ٠ ويغضب اذا ذكرت بنت الحان ٠ ويثور بقول الحق ، وعلى الباطل هو قد كان ٠ خرجت من حجرتها ، لاعنة أردية كالحة كانت مثل الأحلام المزعجة عنــدما يتفحصها الفتيان ٠ ولاعنة قانون العجز الذى كبلهــا ، أحاطها ، أعياها ٠ ماتت الأم وفقدت كل حنان ٠ لكن ذلك الأب الذى ارتسمت على وجهه

قنوات الأحزان ، يجب أن يفيق ، أو يصـــحو ، أن يعلم أن العـــالم كله يمتص دماء من كانوا من صلبه أو من كانوا ضــــده · الكل سواء · هو وحده الذى دفع الثمن ·· قم يا أبى ··

اقترب ·· كانت الدماء تتسرب من أنفـــه · سقط الرعب المجنون من قلبها · ارتعشت ، تقلصت أطرافها · صرخت ، هزت الجسد النحيل ، واوالداه عيناه تبصران ، وعقله يدرك فلسفة الماضى والحاضر ، واليدان مغلولتان واللسان والقدمان · يود أن يصرخ مثلها ، كفى يا ابنتى · ها قد عدت الى هذا ، يكفينى أن أرى رأسك الجميـــل · كل شىء فيك جميــــل ·· أبى ·· صرخت ، بكت ، وولولت ، لكن ما فات لن يرجع الا اذا رجـــع الأمـــوات ، لكن ما فات آت ··

مجلة زينة ١٩٩١

ربما وجدت فى الحلم عملا ٠٠

قالت أحبك ، نظرت اليها ولم أصـــدق ، حاولت الانصراف ولكنها أمسكت بيدى ٠

قلت : وماذا نفعل ٠٠ ؟

قالت : تتزوجنى ٠ جذبت يدى بعنف وانطلقت ٠٠

كان الشارع مزدحما بالناس خاليـا من الأحباب ٠ شعرت بالوحدة تعصر قلبى ، ازداد الزحام حتى باب المسجد ٠ دخلت ، كانت الأرض باردة ، والضوء شاحبا ، ورجال يسجدون ، وثلاثة من الأطفال يلهون حول أحد الأعمدة ٠ أمسكت بحذائى فى تشبث ٠ اخترقت عرض المسجد ٠ جلست بجوار الحائط ٠ تذكرت حذائى ، وضعته بجوار الحائط ، ووقفت أصلى ٠

أمى قالت لى : كنت أرغب فى الذهاب الى المستشفى ٠ قلت : بحماس نذهب يا أمى ٠ تناست أمى أمر المستشفى ٠ وضعت فى يدى عشرة قروش ، وقالت : اذهب الى المقهى واجلس مع الرجال ٠

في المقهى سألوني : متى نراك وكيلا للنائب العام · ابتسمت وقلت : لا أظن ضحك جابر وهو يغني (لا أظن) · دفعت رأسي ونظرت الى عينيه ، كف عن الغناء · وتذكرت خطاب التعيين · سألت في تردد : ألم يحضر ساعي البريد ·· ؟

قالوا في ملل : عوضين لا يحضر الا كل أول شـــهر حتى لو كانت خطابات (الكفر) تملأ مخلته ، قال زينهم :

ربما يكون الخطاب الميري معه ·

قال آخر : لم يعد آخر الشهر بعيدا ··

·· وجاء عوضين ، ونظرت أمي نحوي ، كان وجهي كسيفا ، وفمي جافا لم أنطق بكلمة ذهبت من فوري الى غرفتي · ورقدت على ظهري وتذكرت (فاتيما) ·· أرسلت ضـــحكتها تلف رأسي وعطرها ، ويدها البيضاء الصغيرة المحلاة بأساور من ذهب وأسنانها البيضاء تلمع في شبع ، قلت لها : ماذا تفعل ··

قالت : أهوى السباحة والسينما والتهام الهامبورجر ·

قلت جادا : في الواقع أنا ·· قاطعتني وهي تدفع الي بقطعة من الحلوى ، لا تتحدث مثلهم كن أنت · ضحكت ، قالت : عندما تصبح وكيلا للنيابة سيرضى عنك بابا ·

ذهبت اليه بعد الامتحانات ، قلت كلاما كنت قد رتبته · ابتسم الرجل وقال : انتظر عليك بالصبر ··

أنا الآن انتظر يا أمي ، أنتظر خطاب الميري ، سأصبح وكيلا للنيابة ، أو مفتشا ، أو محققا ، سوف أعطيك يا أمي راتبي كل شهر · صراحة يا أمي سوف أعطيك نصف الراتب والنصف الآخر أنفق منه تمنيت طول عمري أن أشتري أدخل المحلات وأطلب من الباعة دون استحياء وأدفع لهم ما يطلبونه · سوف أشتري وآكل

وسوف أذهب الى السينما ‥ الويل لي يا أمي لم يصل خطـــاب الميرى • القوى العاملة لم تصل بعد الى اسمى • اسمى مدرج ضمن خريجي كلية الحقوق • حصلت على الليسانس بدرجة جيد مرتفع • لا أدرى ما فائــدة هذا المرتفــع • زملائى تم تعيينهم فى منصــب الوكيل • زملائى اشــتغلوا بالمحاماة وأنا يا أمى أرى الجاموســـة تبكى ‥

استدار وجعل وجهه للحائط • سقط الجير الأبيض وظهـــر القش مغروزا فى الطين • القش مثل الأسلاك الشائكة ‥ عندما ذهب الى فريال قالت نتزوج • وعندما ذهب الى (فاتيما) ، ضحكت فى سعادة وقالت لم تتغير • قال لها لم يبق عند أمى الا الجاموسة • (أمى تنظر الى وجهى وأنا أضع وجهى الى الحائط) • أرفع يدى وأضع وجهى الى الحائط • تهبط عصـــا مدرس العربى ، تلهب ظهرى • أتألم أصرخ من الألم ، يصرخ المدرس من الغيظ وقــد تحطمت عصاه على ظهرى (يا غبى يا بليـــد يا شر البقر ‥) ، أمضغ احتقارى لنفسى ، أعرف أنه لا يضربنى من أجل (نون النسوة) انما من أجل (جمع المذكر السالم) لكلمة (نقدية) • أصرخ من أعماقى لا نملك يا رجـل ، أمى وأنــا نعيش على قيراط البرسيم ، والجاموسة تعطينا بعض اللبن والجبن • أمى تقسم بضفيرة شعرها الكالح أن تدفع بى الى العـــالى ‥ أنا نجحت يـا أمى • زغردت النساء ، وامتلأت الحارة بالشربات الأحمر • الأكواب راحت تدور بين الأفراد • مبروك يا أم الوكيل • فى المقهى رقص جابر بالعصا • نجحت يا أمى ، حصلت على العالى ونلت الشهادة العالية • ورقدت مريضـــا ‥

قال قارىء الســـورة : لا تجزعى يا أم الرجال ، سيشفى باذن الله • قال حلاق الصحة : يحتاج الى (حقن) • قالت الخالة وهى تمسك برأسه وتملأ أذنه اليمنى بمحلول البصـــل ‥ يغلى وسيشفى • ثم قالت وهى تضـع فى اليسرى بقية البصـــل :

لماذا لا يعمل في الطاحونة أو عند كساب الخضرى · شهقت أمه وكادت تولول ولكن ألزمت نفسها بالسكات · نظرت الخالة نحوها وقالت : ثور لا عمل له يستاهل الذبح ··

عندما أفاق وسأل عن عوضين لم يجبه أحد · لم يعد أحدهم يسأل عن الخطاب أو عن تخلفه في الدار · مضت ثلاثة أعوام وهو يأخذ من أمه عشرة قروش كل أسبوع ليقرأ الجريدة ·· وفي الجريدة رأى صورتها ·

قالت له : لا تجزع سوف يعطيك أبى عملا · فقط كن لبقا واكسب وده ·· ذهب الى أبيها وعرض عليه رقصة نوم العمدة والعازب والسبع بنات · ابتسم الرجل وهز رأسه · وعندما قابلته في اليوم التالي · قالت له : أنت لا تصلح لشيء ·· لماذا تركت قريتك ·· ؟

أمه قالت هذا قسم أقسمت على رأس زوجي عندما كان يحتضر ، لن يعمل ولدى فى حقل ولا فى مصنع طوب · سيتعلم ولدى فك الخط وعلم الحساب وعلم النجوم ويتعلم لغة الفرنجة ، ويصير من الكبراء · وسخر الناس منها · ارتحلت فى فجر اليوم التالي واستبدلت الكردان والحلق و (ما شا الله) بجنيهات ورقية · دستها في جرة وضعتها في جوف القاعة · اذهب يا ولدى الى المدرسة تحرسك عين الله ، وتجيء باذنه · تعلم يا ولدى ما يلقى اليك وعد مجبور الخاطر حتى أفرح وابر بقسمي ··

علموني يا أمى كم للدجاجة من أرجل وكيف يتمطى الحديد وينام وكم عدد السكان ، وأسباب نصب ورفع الكلام · وقالوا ارسم تفاحا تأكله الغربان ، واقسم ربع الربع على ثلاثة أثمان · وخذ من سين ريالا وادفعه الى صاد ثم اكتب في الكراسة معنى الكلمات · وفرحت الأم وذبحت أوزة وبطة ودعت عثمان وسعد ونسوة الجيران · قالوا: كل هذا سيرده ولدك ، العلام مثلى الذهب وما سرفته اليوم

سوف تحصلين عليه فى الغد • ولدك يا أم الرجال سندك وزادك وزوادك • ودفعت به الى العلام ••

علمونى يا أمى جبر الأرقام وحساب الفلك وتاريخ الأيام ، وأن شجر الصمغ يزرع ويباع • وأن بلاد الله واسـعة وفسيحة وأن بلادنا خير تلك البلاد وأن حامينـا هو الأوحد بين العباد •• ولكن يا أمى •• قالت : احفظ يا ولدى لاتسأل ، لاتخرج عن العلام • كل ما تسمع هام • اكتبه فى دماغك وفى كراستك • فاذا جاء الامتحان سطره من جديد •• ولكن يا أمى •• نفد المال يا ولدى ولكن لا تخف •• عندنا بقرة وخروف ونعجتان ، خذ يا ولدى تعلم وعد وأنت فى أعلى مكان ••

نجحت يا أمى ، ولكن فريال تقول •• اصمت يا ولدى أرسلتك تتهجى الحرف ، لا أن تتهجى الحب • لاتخلط بينهما • نحن قش الأرض •• نخشى أن تأكلنا الفئران ••

هب من نومه مذعورا •• تسلل الى صحن الدار • كان الرجل يسحب الجاموسة الى خارج الدار • قال الى أين •• قال الرجل وهو ينظر الى أم الرجال •• من يكون الأستاذ •• ؟

سأله الأستاذ : هل تعرف طريقة لحل القضية ؟ • قال لا أدرى ••

قال الأستاذ : ماذا أنت صانع وأنت لا تعرف شيئا •• ؟

تذكر سنوات العلام وثمن البقرة ، الخرفان •• تذكر أمه ولم يعد فى الدار الا أمه •• ضاع القيراط ومن بعده كل البهائم والحيوانات • لم يعد فى الدار الا أم الرجـال مصابة بالعمى • لا تبكى ولا تسأل ، فقط ترفع وجهها نحوه •• وماذا بعد يا ولدى ماذا بعد •• ؟

وتسأله فريال أن يتقدم وأن يتزوج · هان الرد عليك · هان يا أم الرجال · سوف أقضى الليلة فى المسجد لأنام · وفى الغد أبحث عن حل · وسوف أرسل لك يا أم الرجال بأسرع ما أستطيع حوالة بمبلغ ·· دعينى يا فريال ، دعينى أنام · ربما وجدت فى الحلم مجالا ·· ربما وجدت فى الحلم عملا ··

مجلة أكتوبر : ١٩٩٠/٧/٢٢

القصـة المفقـودة

انطلق هريدى جريا بعد أن لسعه المدرس بعصاه · لم يكف عن الجرى الا بعد أن وطأت قدماه أرض النجيلة القبلية · عندما كف عن جريه وهدأت نفسه واستراح فؤاده · جلس على ذروة النجيلة وهى تل مرتفع الى حد ما عن الأرض ، يقال انه بقية مدينة كانت عاصمة لمملكة كبيرة ، ولكنها لم تذكر اسم الله ذات يوم فأبادها الله وخسف بها الأرض · ويقال ان الذهب والفضة فى باطن الأرض قد تحولا الى جدائل معدنية تميت من يلمسها · لهذا لم يحاول أحدهم الاقتراب منها · وهريدى علم كل هذا من جده الكبير الذى كان يجلس فى مدخل البحراية التى تتوسط الدار وأمامه (المنقد) ، تتكون فوقه الجمرات الحمراء وتحيط بابريق أسود يغلى دوما بالشاى الأسود · ذات يوم حكى له جده الكبير عن (المسخوطة) التى كفرت بنعمة الله فأحالها الله ترابا · وهطل المطر على التراب فنبت النجيل الأخضر ، ولم تعد للمدينة ذكر · وتحولت أرضها الى نجيلة مهجورة لا يسعى اليها أحد الا هؤلاء الصبية الذين يقودهم هريدى عصر كل يوم للعب فوق تل النجيلة القبلية ، لانها أكثر اتساعا من النجيلة البحرية · ويقال ان هذه المنطقة كانت قصرا

للسلطان أو الملك الذى كان يحكم هذه المدينة العظيمة · وفى عصر كل يوم يلعب الصبية فوق التل ، يصرخون ويتدافعون ويتقافزون · فاذا سمعوا صوتا مبحوحا يأتيهم من مكان ما ، انفضوا عن لعبهم هاربين · وفى كل مرة يجرى الصبية فى ذعر ، يظل هريدى واقفا يتسمع · ويسود الصمت ولا يسمع هريدى شيئا · يقبع جالسا فى أعلى التل مرهفا سمعه ، ولكنه لا يسمع شيئا حتى يحل الظلام فيسرع الى داره باحثا عن جده لكى يستزيده من قصص المسخوطة ·· ومات الجد الكبير قبل أن يحكى كل شىء لهريدى الذى ظل مشوقا لمعرفة سر المدينة المسخوطة · فى أحلامه كان يدخل من سرداب طويل مظلم حتى طاقة مفتوحة فى جدار · فاذا اجتازها ، يجد باب قصر من الفضة يفتح له · ويرى شوارع قد زينت بالورود ، وفرشت بالحرير · وقصورا من ذهب وأحواض زرع أخضر · ويمضى سائرا حتى يصل الى شرفة الأمير التى تشير اليه أن يقبل نحوها · الأميرة فى يدها وردة حمراء · يسرع وهى تبتعد حتى يفيق على هزة عنيفة من يد أخيه الأكبر · وفى كل مرة يرى السرداب وبوابة المدينة والأميرة التى تمسك بالوردة · وفى كل مرة تختفى الأميرة قبل أن يلمسها · وفى كل مرة يوقظه أخوه قبل أن يتم الحلم · ماذا لو وجد السرداب ·· أحس بالهواء البارد ، ارتجف جسده · تذكر عزت أفندى مدرس الحساب ·· لن يذهب الى المدرسة بعد الآن ·· انه رجل شرس لا يحبه · ولكن كيف يهرب من المدرسة ·· وعزت أفندى وأخوه له بالمرصاد · أين يذهب · هده التفكير ·· لم يذهب الى زملائه لكى يقودهم الى النجيلة · لم يبق أمامه الا أن يذهب وينام · ولكنه ما كاد يهم بالانطلاق حتى وقف أمامه دغيدى صديقه · لا يدرى كيف جاء ، ومتى جاء · قال دغيدى بصوت غير مألوف ·· انا أيضا أحلم بالسرداب ··

وقف هريدى مذعورا وهو الذى لا يعرف الخوف · انهم جميعا ينصرفون اثر سماعهم للصوت المبحوح الا هو ·· انه يقف ويترقب وينصت ويقف متحديا الصوت فلا يأتيه الصـــوت بعد انصراف

الأولاد ، ولكنه الآن يخاف من دغيدى صديقه · ابتعد هريدى بينما وقف دغيدى يضحك ، ثم أشار الى الجهة القبلية · وقال :

ـ انظر ·· أنا الذى حضرت هناك · كان دغيدى يتكلم فى جدية وبصوت أقرب الى صوت الذئب المسعور · لم يرد هريدى وأيضا لم يستطع أن يتحرك من مكانه ·

اقترب دغيدى وقال فى ود ظاهر : ـ لم أشأ دخول السرداب الا معك ··

دغيدى صديقه القريب من نفسه ، أين عمته بهانة ؟ · دارهم تقع بجوار الدار الكبيرة · كانا دوما يلعبان معا حتى موعد النوم · وكانا فى أحيان كثيرة يأكلان معا · يجرى دغيدى فرحا الى الدار الكبيرة وهو يحمل بين يديه ما جلبه من حديقة والده ليأكل مع هريدى · وبالمثل كان هريدى يفعل · وكم مرة عاقبه أخوه لانه يصر على اقتسام كل شىء مع دغيدى · ولكنه الآن يكاد يفكر مثل صديقه · اقترب دغيدى أكثر ، وقال فى حماس : ـ فلنجرب السرداب الآن ··

تلكأ هريدى ، فدفعه دغيدى فى ظهره وهو يقول :

ـ هيا ·· قبل أن يصل الأولاد ويشتركون معنا فى اقتسام الذهب ··

تحرك هريدى وقد تيقظ فضوله ، وتناسى تغير صوت صاحبه ، فاذا به يجد السرداب بالفعل ، كما سبق وأن رآه فى الحلم · استدار نحو دغيدى ، ما كاد يفتح فمه ليقول لصاحبه انه سرداب الحلم ، حتى سقط فى أول السرداب · ارتمى على أرض رطبة · حاول أن ينهض ، ولكنه لم يستطع حتى عاونه صديقه دغيدى فى تصميم : ـ يجب ألا تفكر فى شىء ، فقط انتبه لما تراه ، سارا معا داخل السرداب ·

كان الضوء شحيحا ، ولكنهما مضيا حتى وقفا أمام باب حديدى يعلوه الصدأ ٠

اقترب دغيدى وقال : ــ لم أستطع فتح الباب ٠٠ ربما استطعت أنت ٠٠ اقترب هريدى من الباب وأخذ يتحسسه ٠ كانت قطع الحديد تتهرأ تحت أصابعه وتتفتت ٠ وكلما تحسس هريدى جزءا تساقط الحديد حتى تشكلت كوة فى الباب تسمح لمرور صبى ، فدلفا منها ، ووجدا أمامهما عدة طرق مرصوفة بالحجارة ٠ ولم تكن الاضاءة جيدة ٠ وعندما تحركا للأمام أحسا بما يشـــبه خيوط العنكبوت تحيط بهما ٠ وتصاعدت الى أنف هريدى رائحة تراب محروق ٠ ودفعا بأيديهما تلك الخيوط ، ومضيا عدة خطوات ، فاذا بهما أمام رجل يمتطى حصانا وفى يده سيف مسلول ٠ توقف هريدى خوفا ، بينما اندفع دغيدى نحو الرجل ، وسأله بصوت آمر :

ــ أرشدنا الى قصر السلطان ٠٠

اهتز الرجل وأيضا الحصان ثم تحولا الى تراب تساقط دفعة واحدة على أرض الشـــارع ٠ ضحك هريدى سعيدا وانطلق الى الأمام ٠ تبعه هريدى وهو ينظر خلفه فى دهشة ٠ فقد عاد الرجل والحصان الى موضعهما ٠ استدار دغيدى نحوه صائحا : ــ هيا لنرى الأميرة قبل أن تختفى خلف حجابها ٠٠

جرى هريدى ، فاذا به يرى أميرة أحلامه وقد وقفت فى الشرفة وفى يدها صولجان الحكم ، وأمامها وقف أناس كثيرون ٠ وأشارت الأميرة الى الناس فأفسحوا لهريدى الطريق ، فتقدم حتى أصبح فى المقدمة ٠ وتوقف وقد بهره جمال الأميرة ، وشد بصره حسنها ٠٠ قالت الأميرة بصوت عذب : ــ لقد تأخرت كثيرا ياحبيبى ٠٠

تلفت هريدى حوله ، فلم ير صديقه دغيدى ٠ اقترب منه أحد الرجال ، وكان على هيئة رجال الحرس ٠ وأمسكه من يده

ومضى به حتى مدخل القصر ٠ وهناك وجد الأميرة فى انتظاره ٠ فأخذت بيده ومضت به ٠ كانا يسيران على بساط من حرير ، وحولهما عناقيد الورد مدلاة تلامس خديهما حتى وصلا الى حجرة فسيحة ، كانت رائحة العطر تملأ كل ركن ٠ فأجلسته الأميرة بجوارها ٠ وجاء اليه الخدم بالطعام ، فأكل حتى شبع ٠ ثم أمرت الأميرة جواريها فرقصن من حوله فى مرح ٠ حتى اذا انتهين جاء الحراس يحملون صناديق الهدايا ٠ وأشارت الأميرة الى الصناديق ، وقالت : ــ تلك الصناديق كلها لك الا هذا ٠٠

كانت الصناديق كثيرة وكبيرة ٠ والصندوق الذى أشارت اليه كان صغيرا ٠ فقال :

ــ وماذا أفعل به وهو ليس لى ٠٠ ؟!

قالت الأميرة : ــ انه يخص صديقك الذى جاء بك الى هنا ٠٠

وتذكر هريدى صديقه دغيدى ، وتلفت حوله وقد افتقده ٠ فقالت الأميرة :

ــ انه لا يستطيع الدخول كما استطعت أنت ٠ لهذا أحمل له هذا الصندوق واياك أن تفتحه ٠

وصفقت الأميرة بيديها فجاء الجند والحراس والخدم فحملوا هريدى على محفة من ريش النعام كما حملوا الصناديق وساروا به حتى الباب الحديدى ٠ وهنا أشار كبيرهم فتوقفوا ٠ وقال :

ــ يمكنك أن تذهب الآن من هذا الثقب ٠ فنحن لا نستطيع مبارحة الوطن ٠ وخرج هريدى من الفتحة التى كان قد صنعها فى أول مجيئه وأخرج معه كل الصناديق ٠ وأحس بالتعب فنام ٠ فلما استيقظ أخذ فى فتح الصناديق لكى يشاهد ما بها من هدايا ٠ فاذا هى جواهر وحلى من الماس والذهب والياقوت والزمرد ، حتى انتهى

من كل الصناديق التي تخصه • فنظر الى الصندوق الصغير الذى أعطته الأميرة لصديقه دغيدى وسألته نفسه أن يفتحه ليشاهد ما بداخله ••

فلما فتحه انطلقت منه عقرب لعينة فلدغته لتوها فصرخ من الألم ، وانسلخ عن الوجود •• فلما أفاق وجد الصناديق كلها من حوله وتحسس بيديه حتى يستوثق من يقظته فلامست يداه النجيل الخشن فعرف أنه في وعيه • ولما أدار عينيه فيما حوله وجد دغيدى بجواره يشق ذراعه حتى يستخرج سم العقرب • وتقاطر الأولاد وتحلقوا حول هريدى فى فضول • فدفعهم دغيدى بعيدا حتى أكمل ربط الجرح وهريدى ينظر الى الصناديق من حوله والى الأولاد وقد جلسوا عليها وكأنهم اعتادوا وجودها • فلما حملق فى وجه دغيدى مستفسرا • ضحك دغيدى فى خشونة وقال :

ــ ألا زلت تذكر مغامرتنا ونحن صغار ••

انتفض جسد هريدى ورفع يده الى وجهه واصطدمت يده بشاربه الكث • فرفع رأسه نحو دغيدى وهو يقول : ــ وهل نحن الآن ••

قال دغيدى : ــ فى كل مرة ترى تلك الصناديق تنسى كل شيء •• يا رجل ان حفيدك هو الذى بنى هذه الدار •• وأبقى هذه الصناديق من أجلك ••

جريدة البيان ، الامارات العربية

١٩٦٠/٤/١٨

لن يعشــق غـيرها

قامت شلبية فزعة عندما رأت فى نومها عوضين على البنا وهو يتزوج من أخرى . نظرت اليه ، كانت أنفاسه تتلاحق فى رتابة . ويرتعش شاربه فى توتر غير طبيعى . دققت النظر الى وجهه . رأته يبتسم رغم أنفاسه الرتيبة . وظهرت أســـنانه الأمامية من بين شفتيه . ثم تقلب فجأة وطوح بذراعه اليمنى فى الهواء لتسقط على ركبة شلبية الجالسة القرفصاء تنظر اليه . تكورت أصابعه على فراغ . ازدادت ابتسامته اتساعا . أيقنت شلبية أن زوجها عوضين على البنا يحلم بفتاة أخرى . قفزت مبتعدة وقد استشاط غضبها . اصطدمت يدها بيد فأس صغيرة كانت مركونة على حائط « المندرة » التى يناممان بها . أمسكت يد الفأس ورفعتها لتهوى بها على رأس عوضين الذى خانها وتزوج بأخرى ..

. عندما سأله طبيب الوحدة الصحية عن الأسباب التى أدت الى هذا الجرح النافذ فى ساقه اليسرى . قال انه اصطدم بالفأس وهو نائم . لم يزد الطبيب ولف الساق برباط طبى ..

قالت شلبية للطبيب : ان زوجها يستحق قطع رأسه ..

نظر اليها الطبيب فى غيظ ونهرها ٠٠ أمسكت بعلبة الدواء ومضت خلف عوضين على البنا الذى جلس وسط الدار وطلب منها احضار الطعام واعداد (كيلة القمح) لبذرها ٠ أسرعت شلبية الى الداخل ٠ وعندما عادت بوعاء العيش وطبق اللبن ولمحت طرفا من الطرحة السوداء للبنت نفيسة بنت نبوية حجازى ٠ أسرعت الى باب الدار ولكنها لم تلحق بنفيسة ٠ ووجدت الشـــارع خاليا ، التفتت نحو زوجها الجالس يعبث بالرباط الطبى حول ساقه وجدته قد زم شفتيه ونكس رأسه ٠ وضعت أمامه طبق اللبن ووعاء العيش ، ثم أسرعت الى دار نبوية حجازى ، ولكنها لم تجد الا ابنتها الصغيرة فاطمة التى لم تستطع ارواء فضول شلبية فصفعتها فى قســـوة جعلت البنت الصغيرة تتنهد جالسة فى خوف مشلول ٠٠

سحب عوضين مقود البقرة فجأة ٠ تراجعت البقرة خطوة الى الخلف فى رعونة ٠ ضربها عوضين بعصاة طويلة ٠ انطلقت البقرة مرة أخرى ، واستجابت لحركة المقود واستدارت الى أقصى اليمين ٠ ورفع عوضين سن المحراث وأداره الى الخلف ٠ كانت البقرة قد اتمت دورتها وأصبحت على استعداد للانطلاق ٠ غرز عوضين سن المحراث ٠ نظر خلفه وجد شلبية قد سهت عن متابعة البذار ٠ عاجلها بضربه من عصاه ٠ لسعتها الضربة وأيقظتها من أحلامها السوداء ٠ ملأت قبضة يدها بالقمح المبلول وراحت تبذره خلف المحراث ٠ ولكن ما كادت ترفع رأسها حتى رأت ميسورة بنت تاعسة الجناينى قادمة نحوهما ٠ لاحظت ان ميسورة قد شدت حزام وسطها فارتفع نهداها الى الأمام ٠ كما لاحظت ان ضفيرة شعرها تتقافز على صدرها وهى تخطو نحوهما ٠ توقفت البقرة ، ورفعت ميسورة رأسها وهى تبتسم ، ثم نادت على عوضين بصوت ممطوط ٠ اسرع عوضين يربط مقود البقرة فى يد المحراث المغروز ٠ أمر البقرة التى توقفت فعلا بعدم الحركة ، ثم اسرع قافزا نحو ميسورة ٠ انزرعت شلبية واقفة وقبضة يدها اليمنى ملأى بالقمح المبلول ، واليسرى تمسك بسلة القمح مسنودة على جنبها ٠ ضحكت ميسورة

وتراجعت الى الخلف ثم اعتدلت ودفعت عوضين في صدره بيدها ، ثم تلوت في دلال وهى تستدير عائدة • ظل عوضين واقفا بظهره تجاه شلبية لحظة ثم انطلق عائدا •

رأت ابتسامته تملأ وجهه • وما كاد يقترب منها حتى ضاعت هذه الابتسامة •• وحل محلها غيظ شديد • تأكدت شلبية أن ميسورة هى العروس الثانية لعوضين • قذفته بحفنة القمح فى وجهه • سبها فى قسوة • طوحت بسلة القمح فى عنف • لطمته السلة على وجهه • أحس بخشـــونتها تجرح خده • انهـــال على شلبية ضربا • صرخت من الألم وولولت فى استغاثة •• أنقذها عباس أبو رحاية وشندى أبو هاشم وأطلقا سراحها وظلا بعوضين حتى هدأ ••

قالت أم شلبية ان ما حدث كان بسبب غلظة طبع عوضين وقسوة قلبه • وقالت سيدة أم عوضين ان ما حدث كان بسبب استهتار شلبية وقلة ربايتها ونقص عقلها • وتعاتبا ، وعادت شلبية الى عوضين فى آخر الليل بعد أن هدأت النفوس • وهمس متولى الصديق الحميم لعوضين فى أذنه بعدة كلمات • ذهب عوضين على أثرها واشـــترى قطعة حلوى قدمها لشـــلبية ، وقال لها فى تجهم مصطنع : ــ انه يريد أن ينام ليكمل فى الصبح بذر حقل القمح بأكمله •

وضعت شلبية قطعة صغيرة من الحلوى فى فمها ثم ابتسمت فى خجل • ولكن ما كادت تذوب قطعة الحلوى حتى سمعت أنفاس عوضين ترتفع فى رتابة ، ويده اليمنى تتكور قابضة طرف جلبابها ، ثم لمحت بداية ابتسامة على وجهه فأسرعت الى مقود البقرة الملقى فى أول « المندرة » واحضرته ، وانهالت به ضربا على عوضين الذى فز من نومه •• ولف ذراعيه حول شلبية حتى سكنت وهى تبكى فى نوبات عصبية • ضمها عوضين ثم زملها بحزام من صوف ، ودثرها بآخر ، وراح يتلو على رأسها ما علق برأسه من القرآن ،

حتى نامت • وان كانت شلبية لم تنم ، لأن عقلها يدور مثل ساقية ابن المكارم ، حتى جاء الصبح ، وخرجا الى حقل القمح •

فى المساء ، قال عوضين انه ذاهب الى محل الشيخ راضى لشراء « باكو » دخان وللاتفاق مع الأسطى حسنين لرى النصف فدان الشرقى •

وما كاد يفعل ، حتى انطلقت شلبية الى دار نفيسة بنت نبوية حجازى فلم تجدها ثم ذهبت الى دار ميسورة بنت ناعسة الجناينى فلم تجدها أيضا • وعندما جاءت الى دكان الشيخ راضى لم تر زوجها هناك • فلما سألته قال انه لم يره وان الأسطى حسنين قد سافر الى البندر من يومين ولن يعود الا بعد أيام • امتقع وجه شلبية وفكرت فى الذهاب الى دار أبيها • ولكنها استدارت وانطلقت نحو جميزة البيومى • وهناك وجدت عوضين يتضاحك مع فتاة سمراء لم تكن رأتها من قبل • اندفعت شلبية نحوهما • لمحها عوضين فأسرع نحوها • استدارت شلبية وهى تصرخ فى ألم • كانت تجرى فى اتجاه النهر سمعت صوت عوضين وهو يأمرها بالوقوف ، ثم صوته وهو يرجوها أن تتوقف ، ثم صوته وهو يتوسل ، ثم لم تعد تسمع الا صوته ضاحكا فى خشونة • يزداد الضحك خشونة ويزداد الماء عمقا ، وبعدها لم تسمع شلبية شيئا •

كان عوضين يغوص خلفها • ينادى ، يجأر باسمها ، وخلفه عشرات الرجال ولا أثر لشلبية • زامت مياه النهر ، وتدافعت فى دوامات سريعة ، ثم انطلقت نحو الشمال • وعوضين لا يكف عن الغوص والنداء •• حتى بعد أن عثروا على جسدها وواروه التراب • الا أنه يحضر كل مساء الى هذا الموضع من النهر ينادى على شلبية ، ويؤكد لكل من يقترب منه أنها عائدة لأنه لم يحب سواها ولن يعشق غيرها ••

الفيصل/سبتمبر ١٩٩٠ م

شربت ما ارتويت

قلبى مشحون بالأسى ، وعصر الأحلام الوردية قد ولى ، وانزاح الكابوس ، وحلت محله مرارة الواقع وحسرة الأيام التى خلت • وتساوت الأشياء ، الأفراح والأتراح ما عادت تؤثر ، عندما أخذوا عمرى لم يقولوا كلمة • وعندما أعطونى الوهم لم يقولوا كلمة • أنا الذى تكلمت ، اشتريت السراب بدمى ، وقايضت على الوهم بسنوات وعمــرى • وهأنا أشرب العلقم ، وأضرب برأسى فى الحائط ، أرى خيوط الدم المحروق ، وأرى فى يدى العروق ، وأمسك بالزجاجة ، علها تعطينى دما جديدا ، ولكنها للأسف تعطينى أحزانا جديدة • وتجعلنى أرى الأحزان القديمة جديدة • وشربت ، ولم ارتو، ونهلت ولم أكف ، وشعرت بالألم الصاعد فى اصرار الى صدرى • لم أصرخ ، لم أتألم • تصدع الرأس ، وانشق الصدر ، وثقل لســانى ، وثقلت موازينى ، وناديت ، قلت ، املأ الكأس وزده ، ما ارتويت ، عشان أنا ، عطشان الى حزن الصبايا والعجائز ، عطشـــان أنا ، عطشـــان الى حزن الأرامل ، والثكالى ، أفلست ما انتهيت ، تبدد العمر فى ندف الثلج حول الكأس ، شربت ، شربت ما انتهيت ••

قالت ، سأعودك غدا ، لم يأت الغد ، أخذت عمر الحب ، وكلمات الحب ، وتقدمت ، قال الجيران مبروك وزغردت النسوان ، ووزع اخوتى الأكواب مطرحة بالسكر والعنبر ، وانتظرنا ، وانتظرنا، ولكن الحب فى قلبينا لم ينتظر ، طار مع الزمن ، تبخرت الأحلام ، وقالت ، قد جاءنى المخاض ، وانا لم أك بعد خطيبة ، وليس فى هذا الزمن عجيبة ، وان يكن يسمونها مصيبة ، وصرخت ، وبكيت ، ولكن الفارس لم يعد مخلوقا · صار وهما ورسما فى الحكايات المنثورة · حثالة الأحفاد نحن · صار الزمن ماديا والحب ماديا · وقالت حلنى من عقدة الحب ، فأطلقتها ، انطلقت مع شرس أحال نهارها ليلا وليلها نهارا · وجاء لها بكل شيء من بلاد الفرنجة حتى البهار · وانهار حلمى ، وجفت الأنهار ، ونسيت ، وشربت ، ملأت الكأس فى نشوة المنتقم وشربت ، فانتقمت الكأس منى وما رويت · وعشت ألهث ، لا أدرى الى أين · ضاع الحب ضاع ، والحب جزء لا كل على كل حال · نبدأ المسيرة ، نعمل ونكد ونكدح ، ونقول ، ولكن حتى الكفاح سرقوه · مدوا أيديهم نحوه وسرقوه · وضحكات السخرية من حولك · كل هذا الذكاء ولا تفهم ، لا شيء آخر النهار ، قبض الريح ، ريح ملوثة بآثار الآخرين · أنت عائش فيها ، ملوث دون أن يدخل الى جيبك شيء منها · تعيش فيها ، تشمها ، تتنفسها ، تهرى صدرك ورئتيك ، تفرى عضمك ودماغك ، ولكن لا يدخل الى جيبك منها شيء ، تعيش فى بيت للدعارة · وأنت تعلم أنه كذلك ، وأنت قديس طاهر ، تصرخ ، ويذهب صراخك مع صليل الضحكات المجنونة ، تبكى ، تلطم ، تضحك ، لم تعد شيئا مذكورا ، ان قمت أو قعدت أو اعترضت أو وافقت · عجلة الرعب تدور ، تدور وأنت فيها ، تشدك وتنفرج أردت أم لم ترد ، فأنت أنت الولد ، باسمك افتتحنا البار ، وأقمنا حفلات الزار ، وباسمك شيدنا الدور والديار وشققنا الآثار ، أنت الملجأ والملاذ والمقصد والهدف المنشود · وأنت الوسيلة والركيزة والساعد المفتول ، باسمك تفتح الأبواب ، أبواب

الحانات والخمارات ودور العبادة والحضانات ، وعلى ساعدك نقشنا صورة أبى زيد ، وعلى صدرك حفرنا الزناتى ، وعلى ظهرك رسمنا صورة البهلوان · أنت ·· أنت المقصد والوسيلة ، الهدف والرمح ، سواء ركعت للتيار أم تصديت ، فانت مدان يا أخى ··

وسافرت ، جريت ، وتحت لفح القمر ما كففت ، قلت حتى آتى بكلمات لها وقع الدينار والدرهم · ولما عدت ، قالوا ادفع حتى تحظى بدخول جنة الدينار ، ودفعت كل ما ادخرت · كل ما حصلت عليه من ثمن العرق والدم ولفح الهجير وسم الليل ، ولكنى ما دخلت· قالوا للجنة كلمات ، من قالها فهو آمن ، سألت ، ما دلنى عنها أحد ، وبحثت ما اهتديت ، ودخلت عند بلقيس وشربت · هات اسقنى ما شبعت · هات اورنى ما ارتويت · أبكى على حب ضاع أم على مال نفد أم على عمر ضاع منى ، أم على الكأس الذى شربت ·· ؟

وقالوا فى الصحف ، انهم يحاربون ، ويكافحون وســـوف يعملون ، وصدقت ، وياليتنى ما صدقت وياليتنى ما فرحت ثم يا ليتنى ما شربت ·· هات اسقنى منها واسقنى وان سألوك قل جيل ضاع عمره وضاع عقله ··

الفــرقة المجهــولة

صاح غاضبا : ـ هكذا دائما يتأخر ..

انفجرنا ضاحكين ، كل خميس يصيح هكذا غاضبا . وكل خميس يتأخر (شمس) وعنـــدما يحضر نمضى الى سهرتنا كمـا تعودنا . صلاح وشمس يقودان المجموعة ، ونحن خلفهما . فى البداية تناولنا العشاء لحما مشويا بجوار الأهرامات . تحملنا سيارة (سعد) ، فى حقيبة السيارة ثلاجة أعدها (كفيل) بها لحوم معدة للشى . أما محمود فقد أعد الماء البارد والأطباق ، والأهم الخبز الطازج ، ولا أدرى كيف يأتى به ، وكيف يحافظ عليه طازجا حتى موعد الطعام . (عزمى) يحضر أنواعا من المخللات لا أراها فى مكان آخر ، نحتفى بها أكثر من حفاوتنا باللحم المشوى . أما أنا فلا أحضر شيئا . فقط أقوم بدفع حساب المشروبات ، بعد العشاء نذهب للجلوس على النيل فى منطقة بالقرب من المعادى . وعندما نجلس يقترب منا عم دسوقى ويوزع علينا زجاجات البرتقال ، ومعها مجموعة من النكات .. وتنتهى السهرة عادة فى منزل سعد لكى نشرب الشاى التمام كما يقول ، تصنعه لنا زوجته . وبعدها نذهب لصلاة الفجر ونتفرق .

في هذا المساء لم يحضر (شمس) ٠٠ أصغرنا سنا ، طيار مقاتل دقيق الملامح ، سريع الخاطر ، دائما لديه حكايات تجعلنا نضحك طوال السهرة ، رغم عبارات صلاح القاسية ٠٠ الهزيمة تأكل شيئا داخل كل منا ، دخلنا الخدمة العسكرية قبل يونية ٠ لم نكن على دراية كاملة بالقتال ٠ فقط سعد وصلاح ، أقدمنا في الخـــدمة وأكبرنا في العمر ٠ شمس هو الآخر لم يجرب مرارة الهزيمة ٠ كان يسخر من أحزاننا ، وأحيانا يقف صامتا عندما يرانا جميعا ٠ وقد عادت الينا ذكريات يوم الخامس ٠ سعد أكثرنا ألما لأنه كان قائدا لاحدى فصائل سلاح الاشارة ٠ يجيد عمله رغم احتفاظه بطبيعته الريفية ٠ ينفجر شمس ضاحكا وهو يرى صلاح وقد انهمك في تحطيم قطعة قطعة من الحجارة بيده ، الحجارة لا تستجيب لمجهودات صلاح ، ولكنه يواصل جاهدا ٠٠

يقول محمود في براءة أهل الريف : ــ لو أنهم فقط أعطونا الفرصــــة ٠٠

لا أدرى ماذا كان سيفعل العريف محمود وهو يسير مكشوفا وسط بحر الرمال في سيناء ٠٠ الطائرات تئز من حوله ٠ والرياح وجهاز اللاسلكى لا يعمل ٠ والاشارة الوحيدة التى تسلمها تقول (انسحب) ٠ وماذا كان سيفعل (كفيل) بدباباته التى يقودها ٠ لقد درس في روسيا وتعلم ولكن ما يسمعه من أوامر يخالف كل ما تعلمه ٠ ينظر الى سعد ، أكبرنا سنا وأكثرنا حزنا ، وكأنه يعاتبه ٠ أليس هو المسئول عن توصيل تلك الأوامر ٠٠ في هذه الليلة لم نفعل شيئا ، كان تدريب الأسبوع الماضى قد أجهدنا جميعا ، وكنت أنا أكثرهم تعبا ، رغم أننى كما يسموننى (شرابة الخرج) ٠ فأنا أعمل في مكتب قائد الأركان ٠ استدع السيد القائد فلانا ، تمام يا أفندم ٠ في هذا الأسبوع استدعيت كل القادة ٠ قال لى اذهب بنفسك ولا تستخدم أجهزة الاتصال ٠ كان القائد يثق بى ، وكان هذا يســـعدنى ، ولكنى كنت أغار من مجموعة أصدقائى عندما

يتحدثون عن تدريباتهم العسكرية . كنت أحيانا أود أن أحمل أحد المدافع وأذهب لأقاتل ..

لم نتحدث فى تلك الليلة . غياب (شمس) جعل السمر بلا معنى ، وزاد صلاح من نفورنا عندما قال فى غيظ : — يبدو أنه لن يأتى أبدا ..

ساد الصمت . رأيت محمودا وقد اكفهر وجهه ، وزام سعد مهددا . أما عزمى فقد أخذ يردد اسم الله . وكفيل ابتسم ، ووقفت انا حائرا . هل حقا لن تأتى . أجلس وسط زملائى فى حفرة الرمال . سنوات وهم يعيشون هنا ، لا معنى للعودة الى البيوت ، ولكن متى تحدث .. متى يتركوننا ننطلق .. جمعتنا حارة واحدة ، فى قرية صغيرة ، بجوار النيل . دخلنا معا كتاب الشيخ ، ثم انطلق منا من انطلق الى مدارس المدينة ، واكتفى بقيتنا بالعمل مع أسرته . كنا نلتقى فى الأجازات ، وكنا نتحدث وكان شيئا لم يحدث . لم تفرقنا الشهادات ولا المناصب . تخرج سعد وكفيل فى الكلية الحربية ، سافرا الى بعثة ثم عادا ، والتقينا تحت شجرة الجميز ، كنا نرتدى الجلباب الأبيض زيا موحدا . ومحمود وقف مكان أبيه الذى رحل ، له اخوة فى المدارس . وعزمى اشتغل فى المحاكم . وأيضا صلاح واصل تعليمه حتى تخرج فى كلية التجارة . وذهبت أنا لأشق طريقى فى عالم الأدب ، أحلم بالمجد والشهرة والجوائز . جمعتنا الخدمة العسكرية . تقابلنا جنودا وقادة فى المعسكرات ، لا نتعامل الا فى حدود اللياقة العسكرية . وفى مساء الخميس نعود الى شلة القرية . نرفع الألقاب وتتآلف القلوب . تتفاوت الأعمار والمناصب وأيضا الحظوظ ، ولكن يجمعنا (تراب الحارة) الذى عرفت أقدامنا السير عليه أول مرة . أصغرنا شمس ولكنه أيضا رفيق الحارة . كان صغيرا ولكنه كان يندس بيننا . بينما يحكى لنا سعد (الحدوتة) التى لا تنتهى أبدا . الشاطر حسن وكيف يواصل هزيمة الكفار . فى كل ليلة لنا مع سعد حلقة

شجاعة عن الشاطر حسن . وجمعتنا الهزيمة وضراوة التدريب وما عكسته علينا حرب الاستنزاف . كان محمود أشدنا قوة وأضخم جسدا . وكان قد تطوع فى أكثر من عملية انتحارية . كان يضحك عندما نحذره من الموت ، وكان يردد .. الحمد لله عندما يأتى لن أشـــعر به . تفرقنا سريعا . لم تـــكن بنا رغبة للعشـــاء ولا للجلوس على النيل استبقانى سعد . جلس معى نشرب الشاى . اقتربت زوجته وقالت : ــ أمك ترغب فى رؤيتك ..

أومأت برأسى وأشرت اليه ، ابتسم سعد وقال : ــ باذن اللــه ..

كنت أعلم أننى فى حاجة الى رؤية أمى وخاصة فى تلك الليلة ، ولكن كيف ..

فى الصباح يجب التواجد فى مكتب القائد ، أقصـــد المقر الميدانى . صحبنى سعد فى سيارته . لم نتكلم ، كان صامتا طوال الطريق . وعندما وصلنا قال وقد وضع يده على كتفى :

ــ هل تريد أن ترى أمك حقا .. ؟

نظرت اليه بكل وجهى . قال : ــ سأحصل لك على أجازة ..

قفزت من السيارة فرحا . هذه أول مرة يحاول سعد مساعدتى فى الخدمة العسكرية .. قضيت سنوات طويلة ولم يحاول أن يحصل لى على استثناء واحد .. أخذت أعد الأشياء التى سوف أحملها معى الى أمى . وتدفق الزملاء لكى يرسلوا معى الخطابات والسلامات الى الأهل . كانت البهجة تسيطر علينا جميعا .. ظللت أحلم بأحضان أمى ، وبالثريد واللحم المسلوق .. والأهم برؤية (زينب) ابنة خالتى . اقتربت الساعة من الثانية ظهرا ، لم يحضر قائد الأركان .. لم يخالجنى الشك فى حصولى على الأجازة ، بل أيقنت من حدوثها عندما أخبرنى سعد تليفونيا أنه حصل فعلا على الأجازة من سيادة القائد ، وانها ستكون معى فى نهاية اليوم .

وجاء المساء ، ورأيت القائد الأعلى ومعه مجموعة القيادة ٠ لم أتحدث عن الأجازة ٠ جاءت صلاة العشاء ٠ وصلى الجميع خلف القائد الأعلى ٠ أول مرة أرى كل هؤلاء القواد العظام ٠ كان دورى أن أقف فى نهاية الممر ٠ بعد الصلاة توالت الأوامر باستدعاءات قادة الأسلحة ٠ يتكرر هذا الأمر كثيرا ٠٠ تعودت أن أحمل أوامر الاستدعاء ٠٠ وتعودت أن أرى القادة وهم يحملون (ملفات العمليات) ٠ الجميع يحملها باهتمام ، ولكنه اهتمام عادى من كثرة تكراره ٠ أسعد كثيرا وأنا أرى زميل حارتى (سعد) وهو بين هؤلاء القادة ٠ أكاد اقترب منه وألمسه بيدى ، ولكنى أعرف الآن اننى مجرد جندى بمكتب رئيس الأركان ، لى بعض الحقوق لتفوقى فى الخدمة ، ولكن ليس هذا معناه أن أتحدث مع سعد كما أتحدث معه مساء الخميس من كل اسبوع ٠٠ طال الاجتماع ٠٠ وخرج القادة ولكن هذه المرة كانوا فى حالة توتر صامت ٠ اقتربت من سعد ، همس فى جدية :

ـ ألغيت كل الأجازات يا عريف يسرى ٠٠

عريف ٠٠ انه يعاملنى عسكريا ٠ رفعت يدى بالتحية العسكرية الجافة ٠ لم أنطق ٠ استدرت وذهبت الى قائد الأركان ، بادرنى بمجموعة من الأوامر ٠ انتصف الليل وأنا منهمك فى تنفيذ التعليمات ٠٠ متى أرى أمى ، متى أرى خطيبتى زينب ٠ كتبت قصة جديدة وأريد ان أعرضها على الأستاذ يحيى حقى ٠ الرجل يشجعنى كثيرا ٠٠ جاء أول ضوء وازدادت الحركة بشكل عادى ٠٠ ولكننى استشعر شيئا ٠ ذهبت مع القائد الى القاعدة الجوية ٠ تركنى عند أول القاعدة مع أمر بعدم التحرك ٠٠ رأيت شمس قادما ٠ شمس لا يعرف الفروق الكثيرة بين الميرى والمدنى ٠٠ استقبلنى بين أحضانه ٠ أخبرنى أنهم عاقبوه بالحبس ٠ لم أصدق أنهم ممكن أن يحبسوه ٠٠ ضحك وقال انهم جميعا فى حالة استدعاء ، عندما سألته قال فى مرح :

ـ كالعادة ·· سوف يقولون لنا نحن فى إنتظار الأوامر ··

كان يتحرك فى تحفز ولا يكاد يقف فى مكانه ، انصرف مسرعا · جاء سيادة قائد الأركان وانصرفنا · فى الطريق مررنا بمنصة اطلاق · توقف ليتحدث مع أحد الضباط الذى كان يشكو من عدم اشتراكه فى العملية الانتحارية الأخيرة ·· كنت أراقب مجموعة جنود يلعبون لعبة التحطيب ·· وعندما تبينوا رتبة القائد ، وقفوا سكوتا ، ولكنه ابتسم ومضى ·· لم أدهش من تصرف هؤلاء الجنود ·· ولكن يبدو أننا معشر الجنود لم نعد نصدق أننا سوف نحارب ·· لم تعد الأيام تعنى لنا شيئا · لم يعد التدريب يجهدنا كما كان من قبل · تدربنا فى صحراء السلام ، وفى جنوب البحر الأحمر · بل وتدربنا على تخطى سدود رملية شمال الدلتا ·· كان محمود يشكو من ألم فى قدمه ، ولكنه لم يتخلف عن التدريب قط · وكان عزمى لا يحكى لنا ما يفعل · لم تعد التدريبات واطلاق الصواريخ بل والعمليات الانتحارية وأسر بعض جنود العدو تثير فينا الحماس لكى نحكيها · لهذا ظلت جماعتنا تحتفل بمساء الخميس فكأننا شلة من الموظفين ··

فى الحادية عشرة ، عرفت أن اليوم الموعود جاء ·· تلفت حولى ·· كان الاتصال بالقاهرة قد تم قطعه من ليلة أمس ، ولم أكن أعرف السبب ، الآن فهمت · حاولت أن أتصل بأمى ، ولكن كانت الأوامر ·· لا اتصالات الا عن طريق مكتب القائد ، والقائد قد أمر بعدم الاتصال · لاحيلة لى · فهمت الآن ·· كنت أعلم أننى لن التقى بأصدقائى بعد الآن · سمعت صوت الطائرات ، أحسست أننى على وشك البكاء · أتحرك بسرعة فلم تعد لدينا أوقات للتأمل · كنا قد تدربنا على كل شىء · ماذا نفعل تجاه كل حدث توقعناه حتى مخاوفنا توقعناها · لهذا كانت الحركة فى مكتب قيادة الأركان تسير وكأنها ساعة محكمة الصنع · لا أحد يصطدم بأحد · ولا أحد يفعل ما لا يجب فعله · ولكنى تذكرت شمس · انه الآن داخل

(الميج) ، هو وحده ذلك الطيار الذى أحببته · لماذا لم أفكر فى أخى · أعلم أنه الآن داخل دبابة برمائية · وهو القائد ، نظره ضعيف وقدمه بها تشوه بسيط · ومع هذا أصر على الاشتراك فى القتال · لم أفكر فى ابن خالى ، أحد قناصة النخيل ، لا وقت عندى لكى أتحدث عن ابن خالى الذى يصعد الى أعلى النخلة ومعه جهاز اتصال وبندقية مجهزة للاقتناص · لم يعد يحصى (أدمغة) جنود العدو · كان يبكى لأنهم لا يسمحون له بالمكوث طوال يومه ·· أليس غريبا أن مثل هذا العدد الكبير من أسرتى يقتحمون الآن خط النار · ومع هذا قلبى مع شمس ابن حارتى وأصغر أعضاء الشلة ·· عادت الطائرات ، سمعت زميلى ابراهيم وهو يعلن نجاح الضربة وعودة جميع الطائرات · استرحت قليلا · صدرت الأوامر بأن تكون مجموعة قائد الأركان على استعداد للانتقال فى الموقع الجديد · انتدبنى القائد لكى احمل رسالة الى قائد سلاح المهندسين الذى كان يقف بنفسه وسط رجاله لكى يتم تنفيذ الكبارى فى الوقت المحدد · قبل أن أصل الى مكانه ، رأيت لهبا أحمر اندفع فى لحظة ثم انطفأ · جريت ، شعرت بالخوف · قفزت فى حفرة · وضعت رأسى بين يدى · جذبنى أحد الجنود · قال لا وقت لهذا · بدأت الدبابات تعبر · قال ضابط كبير ان قائد السلاح استشهد فى مكانه · أمسك بالرسالة لا أدرى ماذا أفعل · عدت سريعا الى غرفة القيادة ·· كانوا قد عرفوا · عدت مرة أخرى الى موقع الكبارى · رأيت الكوبرى الذى استشهد فوقه قائد السلاح · ورأيت أول دبابة تعبر عليه · كانت بى لهفة أن اقفز فوق احدى الدبابات · رأيت محمودا فأشرت اليه ، رفع يده علامة النصر · بكيت ، عدت سريعا ، طلبت مقابلة القائد · أريد أن أعبر مثل هؤلاء ، أريد أن ألمس رمل سيناء · قال باسما : ـ لا تتعجل ··

رجوته أن يقبل · كان العرق يتصبب من كل جسدى · انزلقت نظارتى الطبية ، وبحكم العادة أعدتها الى مكانها فوق أرنبة الأنف · وضع القائد يده على كتفى ، وقال :

ـ وماذا ستفعل فى هذه ۰۰۰؟

وأشار الى نظارتى ۰ خلعتها بسرعة ، ولكنه استدار قبل ان يرانى بدونها ، وقال :

ـ ستذهب مع مجموعة من الصحفيين ۰۰

لا أحب هذه المهمة ۰ هل أنا مرشد سياحى ۰ حملت مدفعى وادواتى ۰ ونظرت الى من حولى منهم ، وقلت باستخفاف : ـ نحن فى بداية العبور ۰۰ ولا حماية لأحد ۰۰

فكأننى لم أقل شيئا ، مضوا أمامى ۰ أحدهم أعاننى على ارتداء (المخلة) ، والآخر أمسك بيدى وساعدنى على ركوب سيارة خاصة بتلك المهمة ۰ كنت أعلم أن عملية العبور لم تتم مراحلها ، وان هناك وحدات تعمل فى احداث ثغرات وممرات ۰ أعرف أن عزمى مكلف بمهمة خاصة جدا ۰ وكذلك ابن خالى القناص ۰ رفعت هامتى ونحن ننزلق داخل قارب مطاطى ۰ كانت نيران الدفاع الجـــوى تتدفق بانتظام محدثة اللون البرتقالى ۰ وحركة القوارب وهتاف الجنود وأزيز الطائرات يدور حول رأسى ، ولكن لا أفكر الا فى (العلم) ۰ من سيضع العلم ۰۰ كانت مجموعتى من رجال الاعلام فى قمة اللياقة العسكرية ۰ لم أعرف أنهم تدربوا مثلنا ۰ قال أحدهم وقد اقترب القارب من السد الترابى : ـ اقفزوا خلفى ۰۰

وقفز ، لم يكن القارب قد وصل الى الشاطىء بعد ، ولكنه تشبث بالأرض وأمسك بالســـلالم المجدولة وراح يتسلقها وكأنه يسابق الريح ۰ تذكرت كلمات صلاح : ـ آه لو اعطونا الاشارة لأكلت تراب هذا السد ۰

وكانت الممرات التى وصعت السد الترابى تشبه تلك التى تحدثها أنياب الذئب فى جسد بقرة افترسها ۰ دارت كاميرا (وهبى) قبل ان يتم صعوده ۰ تبعثرت المجموعة عندما وصلنا قمة التل ،

كانوا يسألون عن (أبى جاموس) ٠٠ بدأت أرتال الدبابات تتدفق على البر الثاني ٠٠ المساء يقترب ، سمعت صوت انين بالقرب منى ٠ انحنيت لكي أرى ٠ انطلقت دفعة رشاش بجوار رأسى ٠ التدريب يجعلك تفعل الشيء الصواب ، قبل أن أفيق ، كان وهبى قد أسكت الانين ، اقتربنا أكثر ، شعرت بالأسف لانه كان شابا حديث السن ، ولكنهم أعطوه سلاحا ليقتل ٠ جذبني (عبده) بقوة وقال :- كنا نحسبك أكثرنا خشونة ٠٠

شعرت بالألم ، قلت : ـ فقط ٠٠

قال (عبده) في اصرار :

ـ لا يوجد في الحرب ٠٠ فقط ٠٠ أنت أم هو ، لن يبقى منكما الا واحد ٠ (عبده) يبدو أقرب الى نفسى ، مراسل عسكرى ، لديه احساس المقاتل ٠ دفعنا الى أحد السواتر ٠ بدأنا نستعد للدفاع عن أنفسنا ٠ جاء من خلفنا صوت (سعد) ٠ أشار الينا ان نتجه نحو (النقطة المحررة) ٠٠ وهبى أسرع خلف سعد متلهفا على استكمال التصوير ٠ عبده وبقية المجموعة أصروا على مقابلة العدو ٠ كانت بعض الجيوب لم يتم تطهيرها ٠ حذرنا أحد الضباط الذين كانوا برفقة (سعد) ، ولكن عبده أصر على المقاتلة :

قال : ـ لم نأت لكي نكتب بأقلامنا ٠٠ انها معركة الجميع ٠

أشار الى (حامد) أن يذهب خلف التل ٠ سمعنا صـوت (تكة) المدافع ٠ الظلام مثل بقع سوداء على التل ٠ نيران المدفعية من خلفنا لاتزال مستمرة ٠ اندفع عبده وأطلق مجموعة من رشاشه ٠ ساد السكوت ٠ جاء صوت (محمود) لا أدرى من أين جاء ٠٠ صاح مهللا (الله أكبر) ٠٠ لم تتحرك المجموعة التى معى الا بعد أن تأكد (عبده) أن (جيب) العدو قد تم اسكاته ٠ اندفعنا نحو (النقطة الحصينة المحررة) ، انزلقنا على الرمال ٠ أكوام من الحجارة على هيئة كتل محزومة بشباك معدنية ٠ قضبان حديدية تشكل درعا

واقيا وتمنع الرمال من السقوط ، باب من الصلب محطم ٠ (محمود) يقودنا ٠٠ يبدو أنه غير محمود الذى أعرفه ٠ كنا نلعب الحجلة بمهارة فى الحارة ٠ وكنت أشارك أصدقائى العطف عليه لأنه (عبيط) الى حد ما ، ولكنه اليوم يقود رجاله فى اقتحام نقطة حصينة ٠ بدأ (عبده) يسأل ويكتب ٠ ابتسمت وقلت : ــ هل جئنا لكى نكتب ٠٠ ؟!

ارتفعت ضحكات المجموعة ، كان وهبى قد صور رفع أول علم فى سيناء ٠٠ ودخل النقطة الحصينة وهو يصيح : ــ رفعنا العلم ٠٠

علمنا أن عدد جنود العدو الذين قتلوا خلال تصادم مجموعتنا من رجال الاعلام معهم يزيدون على عشرين فردا ٠ شعرت بالفخر والرغبة فى المواصلة ٠ نظرت حولى ٠ كانت سراديب النقطة لا أول لها ولا آخر ٠٠ كيف دخل هنا محمود ورجاله ٠ كنا نلعب (عسكر وحرامية) ودائما تنهزم فرقة محمود وتنتصر مجموعة صلاح ٠ كيف عرف محمود الطريق خلال كل هذه السراديب ٠٠ كانت قوات العدو فى الملابس الداخلية قد تكوموا فى احدى الحجرات والخوف سلط عليهم ، كبلهم ، فهم لا يتحركون ٠ وقف أمامهم جندى ينظر اليهم فى شراسة ٠ حاول عبده أن يتحدث اليهم ، ولكن قائد مجموعة الاقتحام رفيق حارة محمود ، رفض ٠ قال ان لهم حقوقا وأنهم أسرى يجب تسليمهم للقيادة أولا ٠ درنا فى النقطة ٠ رأينا الثلاجات وأجهزة التكييف والاتصالات وشبكة المياه والصرف الصحى ٠٠ لاحظت كمية الحديد الذى يشكل هيكل النقطة ٠ لم تكن بالنقطة آثار انفجارات ، مجرد طلقات رصاص تركت أثرا بسيطا على الجدران ٠ ومن العدو قتيل واحد فقط ، مجرد جندى صرعه رصاص فرقة محمود ٠

اقتربت الفجر ، وبدأت المجموعة ترسل تقاريرها الصحفية ٠ كنت مكلفا بتأمين وصول هذه التقارير والأفلام ٠ أصر (عبده) ومن

معه على مواصلة التحرك مع القوات • كانت أرتال الدبابات قد قطعت شوطا طويلا مبتعدة عنا ، والرمال تتحرك خلفها صانعة ستائر صفراء •• العربة انغرست فى الرمال تعاونا على رفعها • كان وهبى أكثرنا مرحا رغم ثقل الكاميرا التى يحملها ومساعده لا يكف عن التذمر لأننا لا نفعل شيئا سوى السير خلف الساتر الرملى • جاءت طائراتنا من الخلف • اردت ان أرفع يدى محييا (شمس) • ضحكت لاننى أعلم أنه لن يرانى • صحت فى سعادة : يعيش أولاد حارة سيدى يوسف ••

ضحكت المجموعة • سألونى عن الحارة • قلت ان لنا فى كل موقع الآن فى سيناء من يمثلنا ، فى الطيران والمدفعية والدبابات والمشاه ، وكل الأسلحة • وان لدينا عددا من القناصة وفيهم أولاد خالى وأخى يقود دبابة فى شمال الجبهة • ابتسم (عبده) وقال :

ـ لست وحدك يا بطل •• كلنا مثلك ، وكل حارات قرى مصر لها من يمثلها فى كل سلاح •

سقطت دانة مدفع بالقرب منا • انقلبت السيارة ، واسرعنا للاحتماء • بعد قليل جاءنا أحد رجال الشرطة العسكرية وقال انه مكلف بارشادنا الى موقعنا الجديد • كانت أمنية (عبده) الاشتباك مع العدو • وكنت مكلفا بابعاده عن هذا الاشتباك • انه جاء ليرى الأحداث لا ليشترك فيها •• انتقلنا الى الموقع الجديد • جاء سعد وأخبرنا أن قواتنا تتوغل بسهولة فى يومها الثانى ، وأنه سوف ييسر لنا اتصالا بالصحف • وفعلا قام كل مراسل باملاء رسالته فى سهولة • جاءنا العريف جابر بمؤنة جديدة وقال : ـ تحسبا للظروف هناك احتمال تصادم قادم ••

لمعت عيون المجموعة •• انهم يرونها هكذا •• حركة لا تكف •• تحركنا بسرعة لكى نرى الموقعة عن قرب ••

في المقدمة عربة مصفحة وخلفنا أخرى · نحن في الوسط · توقفت العربة التى أمامنا ·· اشاروا بالانتشار · رحنا نبحث عن خنادق رملية · بعد قليل رأينا مجموعة دبابات قادمة كانت تسير على مهل ، وفى حذر · انطلق صاروخ (الآر بى جى) فاخترق الدبابة الأولى · ارتفعت مقدمتها كأنها حصان على وشك القفز ، ثم اهتزت منفجرة · تبادل جنود العربة الأولى الاشتباك مع جنودها الذين نجحوا فى القفز منها · رأيت بقية الدبابات تسرع بالعودة ·

قال عبده : ـ هذه مجرد اختبارات ··

قال وهبى : ـ أول تصوير حقيقى لصيد دبابة ·· أنا لا أكاد أصدق نفسى ·· بعد لحظات جاء الأمر بالتقدم · وعندما اسرعت لدخول سيارتنا شعرت ان قدمى مشلولة ، لا أقدر على رفعها · تصورت اصابتى · نظرت الى أسفل ، كان متشبثا بقدمى ، ممسكا بحذائى السميك فى استماتة · نظرت الى عينيه · استغرق الأمر كله ثانية واحدة ، ولكنه كان عمرا بأكمله · يداه ممسكتان بحذائى ، الغدر والكراهية تطلان من عينيه ، سقطت نظارتى الطبية · لم أشعر وأنا أغرز مقدمة السكونكى بين عينيه · تراخت يداه ، سقط ، رفعت قدمى ودلفت الى العربة التى انطلقت مسرعة ·· كنت أود أن أحكى لهم ، ولكنهم كانوا عنى فى شغل · كانوا على شوق لمتابعة حركة التقدم عبر ممرات سيناء ·· رأيت عينيه ، وعرفت مرارة الحرب وقسوة القتل · وتذكرت تشبثه واصراره على جذبى · وسمعت كلمات عبده : ـ الحرب ليس فيها (فقط) ··

قال وهبى (نكتة) ، ضحكنا ، سمعنا دوى المدافع من جديد · كان الليل قد جاء ·· دخلنا الموقع الجديد · بدأنا نسمع الأخبار · الحذر يغلف الأخبار · لا يهم ما حدث · انما المهم ما سوف يحدث · كنت أريد الاطمئنان على شمس · لم أعد اسمع عن رفاقى ·· أخى وأولاد خالى ، لا أعرف عنهم شيئا · رأيت أمى قالت : ـ خذ كل هذه ··

أكلتها ، فطيرة ساخنة ‥ أحب هذا النوع من الفطائر ٠ قالت وهى تبتسم :

ـ زينب سألت عنك ‥

قلت فى اصرار : ـ سوف نتزوج غدا ‥

ضحكت أمى ، واختفت ‥ بحثت عنها فى كل أنحاء الدار ولكن لم أجدها ‥

فاجأني عبده بعلبة عصير وهو يقول : ـ أتحبها الى هذه الدرجة ‥

قلت فى ارتباك : ـ من ‥ ؟

قال وهو يفرغ العصير دفعة واحدة فى فمه : ـ تلك التى كانت معك وشغلتك عنا ‥

دخل سعد مسرعا وأخبرنا أنه رتب لنا اتصالا جديدا ٠ أسرعنا خلفه وأمسك كل منا جهاز الاتصال ، وأخذ يملى رسالته على جريدته ‥ تعجبت من (سعد) كيف أجده فى كل مكان على هذا النحو ٠ تذكرت أنه هكذا لديه حلول جاهزة لكل شىء ٠ لا توجد معضلة أمامه ‥ ساعد صلاح لكى ينجح فى الدبلوم ٠ أنقذ بقرة عم عباس عندما سقطت فى بئر الساقية ، وأسرعوا لاحضار عم أحمد الجزار ، ولكن سعد أنقذنا وعاشت البقرة ، وشربنا فى اليوم التالى من حليبها ٠ استطاع أن يمسك بلص تسلل من قرية مجاورة الى قريتنـــا ‥

حتى بعد أن أصبح ضابطا له مكانته فى الجيش ، كان يأتى ويجلس معنا ، ويشترك معنا فى كل شىء ‥ لم يأنف من معاونة (أم زينب) فى جمع محصول القطن لها ٠ يومها رجته فى توسل ألا يفعل ما يفعله الفلاحون ‥ تحركنا الى داخل سيناء ‥ كنت اتمنى أن نصل الى جبل موسى ٠ منذ سنوات تسلقته مع مجموعة من الأصدقاء ، قبل ان يحتله اليهود ‥ أود اليوم ان اتسلقه ومعى

وهبى لكى يصور من هناك جمال سيناء أرض القمر ‥ لم تعد للأيام ملامح مثلما كانت عليه من قبل الساعات تحددها الاشتباكات ‥ أصر عبده ووهبى أن يذهبا الى منطقة تناطح الدبابات ‥ كان الأمر مغريا ‥ أخذنا طريقنا وسط درب صحراوى يقودنا متطوع من قوات المشاة ‥ كانت الدبابات تعوى مثل الذئاب الجريحة ‥ وفجأة وجدنا أنفسنا وسط منطقة تحيط بها دبابات العدو ‥ لم أعد ذلك الشخص الذى كان يعمل اداريا فى مكتب قائد الأركان ‥ بل لم أعد أنا ذلك الشخص المتردد الذى لا يستطيع اتخاذ قرار زواجه المعلق ‥ كانت قوى الرغبة فى الانتقام هى التى تحركنى ‥ دفعنى (عبده) بعيدا ، وبدأ يتعامل مع قوة تحاول حفر طريق لها خلف رتل الدبابات ‥ كانوا على استعداد لفعل أى شىء ‥ أعطى وهبى الكاميرا لسائق سيارتنا ‥ بدأنا فى تسلق المرتفع ‥ أشـــار عبده الى كل منا بدوره ‥ بدأنا اطلاق النار والتعامل مع العدو ‥ شعرت ان ساقى ثقيلة ‥ نظرت اليها ، رأيت الدم ينزف بغزارة ‥ هلل وهبى معلنا انتصارنا ‥ أسرع نحونا جندى مشاة ‥ تذكرت صلاح ومحمود ‥ قالوا ان قائد دبابات العدو ‥ استسلم بعد ابادة كل قواته ‥ حمل وهبى الكاميرا ، وأسرع عبده لكى يلحق به ‥ كنا قد أصبحنا أصدقاء‥ لمحنى ، اقترب ، رأى الدم ‥ نزع قميصه فى محاولة لربط الجرح حتى يتوقف النزف ‥ ولكن الدم تسلل من القماش ، وبدأ يتساقط على الممر الحجرى الذى نقف عليه ‥ رأيت الرمل والدم يمتزجان ‥ حملنى (عبده) ‥ نادوا عليه حتى يرى قائد الدبابات المستسلم ‥ رأيته يحملنى ‥ ثم لا شىء بعد ذلك ‥

وهنا فى المستشفى صحوت على ضحكات (شمس) ‥ كان يصف كيف أنهم أخبروه بالطلعة الأولى وهم فى السيارة التى كانت تقلهم الى القاعدة ‥ صمتوا ، شعر هو باللاشىء ‥ ثم انفجروا جميعا فى الغناء ‥ وعندما شاهد طابور جنود العدو اقترب حتى يكاد يلمسهم بجناحى طائرته وحصدهم بمدفعه ‥ طار معلنا لقائده انه أدى المهمة وقام بنسف المطار ‥ بعدها لم تعد طلعاته لها عدد

محدد • ثم نظر نحو (سعد) الذى كان صامتا : وهو يلمس بيده شرائطه الجديدة أصر أن يتكلم سعد ، وقال عزمى وهو ينظر الى سعد:
ـ محمود سوف يعود •• حتما سيعود •

تذكرناه جميعا •• رأيت محمودا يبتسم ، ولكنه فى السماء ، يرتدى ملابس خضراء •• ويطير نحو بناية عالية • ورأيت العديد من الرجال الذين يرتدون نفس الزى الأخضر ينادون عليه • رفعت يدى محاولا ابقاءه معنا • ولكنه مضى • وسقطت ذراعى خاوية •

ضحك شمس وهو يشير الى سعد ، وقال :

ـ انه لا يريد أن يعطينا حقنا فى السبوع ••

قال عزمى : ـ أنا لن أتنازل عن حقى ••

قلت لسعد : ـ ماذا حدث وأنا فى المستشفى •• ؟

قال سعد فى سعادة : ـ (أم أحمد) انجبت ولدا ••

علق شمس ضاحكا : ـ تصور مع الطلعة الأولى فى الثانية تماما امتزجت اصواتهم ومقترحاتهم •• ولكن شـــق عبده طريقه نحونا •• كان يحمل باقة زهور وخلفه مجموعة رجال الصحافة • وضع باقة الورد بجوارى وقال : ـ مبروك يا بطل •

قلت وأوراق الصحف تقف تلا بجوار فراشى :

ـ كتبتم عن كل من اشترك فى العبور •• فمن يا ترى يكتب عنكم أنتم •• ؟

قال وهو ينظر الينا فى فخر :

ـ كل ما فعلناه جميعا سيظل مسطورا على رمال سيناء ، ولن يمحوه الزمن •

جاءت الممرضة لكى تأخذنى الى صالة التدريب ، لكى أتمرن على استعمال ساقى الصناعية ••

الأهـــرام
١٩٩٣/١٠/١٥

رأيت السماء حمراء

قالت انها تشعر ببعض الألم أسفل الصدر وانها تريد ان تنام • ذهبت ، وجلست أنا لكى أستكمل ما بدأت • كان أستاذى يهزأ منى لأننى لم أستكمل أبحاث رسالتى بعد •• أخذت أقلب فى المراجع • أدون بعض ما أصادفه • سمعت أذان الفجر • رأيت الأوراق المسودة وقد كثرت ، والصداع ممسكا برأسى • توضأت وصليت الفجر • ذهبت اليه فى حجرته • كان راقدا وقد أزلق الغطاء من على جسده • قبلته وشعرت بحب جارف تجاهه • تأملت وجهه الأبيض • وضعت يدى على رأسه وانا أقاوم الزهو الذى بدأ يتسلل الى صدرى • نزعت يدى بصعوبة ثم انصرفت • تذكرتها •• عندما ذهبت لتنام ، لم تصح فى منتصف الليل كعادتها لتعد لى الشاى •• يبدو أنها مرهقة فعلا • قلت يجب أن أذهب بها الى طبيب • لم أستطع مقاومة النوم ، فارتميت على مقعد بالصالة ولم أشعر الا بيدها وهى توقظنى :

ـ الساعة تدق العاشرة ••

وقفت فزعا ، اغتسلت وارتديت ملابسى وجمعت أوراقى

وأسرعت خارجا . فى السيارة تذكرت أننى لم أسالها عن حالها ولم أشرب كوب الشاى الذى اعدته لى ..

قال الأستاذ المشرف بعد ان قلب فى الأوراق :

ـ هذا لا يكفى ..

راح يشرح لى باسهاب كيف انه جاهد فى سبيل العلم .. وكيف سافر وشق الطرق الوعرة ، لكى يحصل على مادته العلمية من مصادرها .. ثم أخذ يملى أوامر اليوم .. مراجعة بروفات كتابه الجديد .. تنسيق الأوراق التى أعدها لكتاب سوف يحدث ثورة فى عالم الثقافة .. مراجعة أوراق طلاب الدراسات ووضع الدرجات لكى يرى كيف أقوم بتقدير اجاباتهم .. شراء ما فى هذا الكشف ، وأيضا المرور على هذه الأماكن لصرف بعض الشيكات ، وتحصيل أو دفع ما يلزم ..

قال فى مرح وهو يناولنى الأوراق : ـ أنت تذكرنى بولدى الذى سافر الى أمريكا ..

لا أدرى لماذا سافر هذا الولد العاق الى أمريكا .. لماذا لم يظل هنا حتى يقوم بنصف ما أقوم به .. عادت اليه الجهامة وهو يقـــول :

ـ وكل هذا لن يشفع لك عندى .. فدراســاتك ينقصــها الكثير ..

عندما عدت مع أذان العشاء ، كنت مرهقا ، وزاد من رهقى هذه الكتب التى حملتها من المكتبة .. وتذكرت اننى لم أذق طعاما . أسرعت اليها .. كانت نائمة .. شعرت بالحيرة ، هل أوقظها لكى تعد لى طعام العشاء أم أتركها ، فلم أعهد فيها هذا من قبل .. كنت أعود فأجدها فى انتظارى .. تبتسم وهى تقدم لى الطعام ، وتحدثنى عن مشاغبات (سامى) ولدى الوحيد .. تذكرته ،

ذهبت اليه فى حجرته · رأيته وهو يعبث بألعابه ·· هالني أنه راح يحطمها فى قسوة ·· وقفت عند الباب · وعندما شعر بوجودي اندفع نحوى فى حب ·· راح يقبلنى · جلست على الأرض وجلس هو بجوارى · راح يتكلم بسرعة عن كل الأشياء التى سمعها أو رآها فى التليفزيون ·· الذراع الحديدية ، القابض ، القوة المهلكة ، الاندفاع نحو الهدف لتدميره ·· ضحكت ، كانت الكلمات تخرج من فمه لها رنين خاص ·· سألته عن معنى كل هذه الكلمات ·· رأيت الدهشة مرسومة على وجهه ·· كيف لا أعرف (الكانيتو) ·· من هو هذا (الكانيتو) ·· انه (الآلى المدمر) الذى سيدمر الكواكب جميعا ·· يا ساتر ·· سألته عن أمه ، قال : ــ دفعتنى عنها بعيدا ، فجلست وحيدا فى حجرتى ··

أخذته من يده ، وذهبنا معا اليها · كانت قد استيقظت ·· قالت انها لا تزال تشكو بعض الألم وأنها تدرك مدى تقصيرها فى حقنا · اندفع سامى نحوها وقبلها فى حنان ·· أخذنا فى تناول العشاء ·· اضطررت الى رواية ما صادفنى ·· ابتسم سامى وقـال :

ــ عندما أصير مثلك سوف أقتل هذا المشرف ··

صاتت أمه فى وجل · لطمته على وجهه ، وقالت بانزعاج ــ لا تقل هذا أبدا ··

انكمش سامى بجوارى · وضعت يدى على رأسه ·· كنت ضعيفا أمام نظراته · قلت ملطفا :

ــ انه يعلمنى لكى أصبح مثله أستاذا ··

قال فى اصرار : ــ أنا لا أريدك أن تصبح مثله ··

قالت هى : ــ بل يجب أن تصبح أنت مثله أيضا ··

هب واقفا ، وأخذ يبعثر كتبى ·· أمسكت به ، تضاحكنا ·

ارتفعت ضحكاتنا حتى جاءت أوامرها بالسكوت والكف عن هذا الهزر • ذهبت به الى حجرته • أرقدته فى فراشة •• حكيت له حكاية السيدة العجوز وبناتها • نام قبل أن أتمها • عدت الى كتبى وقررت أن أنهى تلك الدراسة •• كانت تنام كل ليلة ولا تصحو الا فى العاشرة •• وكنت أنا أظل ساهرا أكتب •• لم يفهم سامى شيئا من برقيات التهانى • ذهبنا ثلاثتنا الى الشاطىء •• يومها عرف أننى نجحت فى الدراسة ، وانه أيضا نجح فى المدرسة • تساوينا هو وأنا •• أما هى فقد ازداد شحوبها ، عندما عدنا من الشاطىء ، وجدت ترشيحا لى بالسفر الى جامعة عربية • فرحت زوجتى وغضب سامى • حاولت أمه اقناعه بأن هذا فى صالحنا جميعا • وهناك حاولت أن أقوم بعملى كما يجب • كانت الساعات التى أقضيها فى المنزل مع أسرتى طويلة ومملة • فى البداية سعد سامى بوجودى ، ثم بدأ يشعر بالضيق • انه لا يفعل شيئا سوى الذهاب للمدرسة والعودة •• وهذا الأمر لا يأخذ منه وقتا طويلا •• أما هى فقد رضيت وقبعت بالمنزل • لم تعد ترغب فى الخروج • كانت المنزهة الوحيدة لنا جميعا الذهاب الى (السوبر ماركت) أو لمجمع المحلات التجارية •• هناك يجرى سامى ويلعب ويلهو •• أما هى فقد كانت تسير وكأنها لا ترى شيئا •• أقوم أنا بالشراء • كانت متعتى الوحيدة الشراء ، شراء كل شىء •• تراجعت هى عن الذهاب معنا • تعودت ان أذهب أنا وسامى •• نلعب ونشرب الماء البارد • ندور بالسيارة فى الشوارع ثم نعود لكى نجدها قد نامت •• كان سامى دائما يسألنى عن أشياء عديدة يراها فى الشارع وفى المدرسة • أحيانا أتعجب لانه يسأل عن تلك الأشياء بالذات ، وأحيانا أقف حائرا ، عقله يدور بسرعة • درجاته فى الدراسة مرتفعة • لا أراه فى المنزل منكبا على الكتب ، بل أجده متعلقا بالأجهزة الحديثة التى اشتريتها من أجله • لا يكف عن اخبارى بالجديد الذى يكتشفه بتلك الأجهزة العلمية • يتابع الأفلام والمسلسلات بانبهار شديد • يحفظ عن ظهر قلب كل أسماء

النجوم • خشيت عليه •• أخذت أجلس معه كل يوم لمدة ساعة لكي أحدثه عن كتب التراث ، وعلوم الدين واللغة والفقه • كان يجلس صامتا • أحيانا ينظر الى ساعته وأحيانا يسأل بعض الأسئلة • صحبته الى بعض المجالس القليلة التى نتقابل فيها مع بعض الاخوة من أهلنا • وهناك تقل الشكوى من كل شيء • بعضهم يصر على ذكر كل العيوب لبلدنا ، والبعض الآخر لا يجيد الا سرد (النكت) •• سافر سامي وأمه ، قالوا هذا يكفي لنا •• أكمل أنت اذا اردت •• كانت الأموال قد عرفت طريقها الى جيبي • عرفت الجوع والفقر وشعرت بالمذلة والهوان وانا طفل •• لا أريد هذا لولدى • قال الأصدقاء سنوات أخرى لن تضر • نظرت الى سامي ، كان قد اكتمل شابا ، وكنت قد تعودت الجلوس اليه ومصاحبته في الأســـواق وأحيانا فى المهرجانات التى كانت تقام فى الأندية • ولكنه صارحنى أنه هو أيضا لم يعد يرغب فى البقاء هنا ، وأنه يريد السفر مع أمه • لقد اشتاقت نفسه الى بلده والى أهله •• تذكرت اخوتى وأخوالى وأعمامى • لم أبخل عليهم طوال الأعوام الماضية •• كنت أرسل اليهم كلما سنحت الفرصة • ولكن كيف يعرف سامى أهله •• وصلنى خطاب من سامي وأمه قالا انهما فى خير حال ، وان سامى بدأ الدراسة فى الجامعة ، وان المســـكن الجديد قريب من تلك الجامعة ، وانهما يدعوان لى • ورسائل تروح وتجيء • ولكن الأسواق لم تعد كما كانت • سامي ليس معى ، ومسكنى أصبح خاويا • تراكمت الأطباق الورقية وعلب الأكل المحفوظ ، وأوراق المسودات • ولم تعد الأفلام التى يجلبها الأصدقاء تسعدنى •• هجرت الفراش لأنه يذكرنى بها • طنين أجهزة التكييف التى تعودت عليها لم تعد كافية لكى أنام •• حزمت حقائبى وجمعت أموالى وعدت ••

تحملنى سيارة أجرة الى مسكن زوجتى وولدى • الشارع هادىء •• البناية عالية • توقف السائق وأشار الى الرقم المكتوب على باب العمارة • هبطت من السيارة •• حملت حقائبى ووقفت حائرا •• كانت الخطابات والرسائل قد كفت بيننا • لم أعد أتذكر

من الذى ابتدأ بعدم الكتابة ٠٠ تباعدت المكالمات التليفونية ٠ واصلت السير وانا أحمل حقائبى ٠٠ شعرت بألم حاد برقبتى ٠٠ أسرع رجل من أهل الجنوب نحوى فى فضول يسألنى عن اسمى ٠٠ وعندما نطقت به ، شاع بشر فى وجهه ٠٠ أسرع وحمل عنى الحقائب وسار متقدما الى المصعد ٠٠ أخذ يقص أخبار اسرتى ٠٠ سامى فى المسجد منذ صلاة الفجر ، والهانم عند الطبيب منذ الصباح ٠٠ ماذا أفعل ، ليس معى مفتاح الشقة ٠ جلست بجوار البواب الذى راح يتحدث عن الشباب الذين يجوبون الشوارع حاملين السيوف ٠٠ صرخت فى دهشة ، أعادها البواب مرة أخرى ٠ لم أفهم ما علاقتى بحكاية السيوف ٠ بعد قليل حضر رجل يرتدى الملابس البلدية ٠ أعطاه البواب مفتاح احدى الشقق ٠ نظر الرجل نحوى فى ود وذهب ٠٠ قال البواب انه رجل طيب ٠ أومأت برأسى ٠ كانت الجلسة قد تحولت الى كابوس ٠ رأيتها تدخل على مهل ٠ وقفت وأسرعت نحوها ٠ نظرت هى نحوى فى اعياء ٠ قلت :

ــ شفاك الله ٠٠

قالت للبواب بعض الكلمات ٠ أسرع الرجل بحمل الحقائب ٠٠ وعندما تمددت على الفراش ، كان أملى أن أنام ، ولكن ما سمعته منها ومن البواب عن سامى جعلنى أشعر بالقلق ٠ قلت لها فى لهفة :

ــ سأذهب الى المسجد لاحضاره ٠٠

انتفضت واقفة ٠ ظهر الكبر عليها ٠ شـــاخ الوجه وشاب الشعر ، وتسمرت التجاعيد من حول ذقنها ٠ قالت فى رجاء :

ــ أرجوك لا تذهب ٠٠

قلت ، وقد عدت الى جلستى المسترخية ، متظاهرا بالود :

ــ هل هناك ما يمنع دخولى المسجد ٠٠ ؟

قالت فى توسل : ــ أرجوك ٠٠ يكفى هو ٠٠

أشاحت بوجهها عنى ، سمعت صـــوت نحيبها المتقع الذى تحاول منعه • شعرت أننى مقبل على أمر سيىء • تذكرت أننى لم أتوضأ بل لم أغتسل • ذهبت الى الحمام •• بعد الصلاة علمت منها أن سامى لا يبيت هنا فى المنزل وأنه يزورها فى بعض الأيام •• الشقة خالية من أشياء كثيرة كانت لدينا فى غربتى • دخلت هى الى حجرتها وأوصدت الباب •• ارتديت ملابسى وذهبت الى المسجد • لم يكن به أحد • صليت وجلست ، وسألت رجلا عجوزا • قال : ــ انهم فى الجبل ••

ــ ماذا يفعلون ••

قام الرجل ومضى •• خرجت ودرت حول المسجد • وجدت صبيا يلهو بالكرة • سألته فى تودد :

ــ هل تعرف ســـامى •• ؟

أسرع وأمسك بالكرة ، ثم نظر نحوى فى دهشة •• أعدت السؤال •• جاء صبى آخر • قال فى استفسار :

ــ هل تعرف الأمير •• ؟
قلت فى محاولة للفهم : ــ تقصد من •• ؟
قال الصبى الأول للصبى الثانى :
ــ انه يسأل عن ســـامى !

سمعت صوتا نسائيا ينادى على الصبيين •• تلفت حولى •• أريد أن أعرف أين ولدى •• جرى الصبيان ، وأسرعت أنا الى أحد الدكاكين ، قال الرجل فى هدوء :

ــ لا أعرف شيئا •• ماذا تريد •• ؟

أشار الى البضاعة • قلت معددا بعض الأصناف • كنت أريد أن أفتح معه حوارا • أحضر ما أردت ولم ينطق بشىء • سألته عن الجبل • أشار الى جهة الشمال • أسرعت •• بعد حوالى ساعة

شعرت بالتعب · وقفت باحثا عن سيارة أجرة · أقبلت واحدة · قال السائق فى تجهم :

ـ لن أذهب الى الجبل ··

قلت مستعطفا : ـ ولدى هناك ··

نظر السائق نحوى ، ثم مضى ، وعند أول الطريق الى الجبل قال فى حسم :

ـ انزل هنا ··

رجوته لكبر سنى ، ولكنه رفض ·· بدأت الصعود · كنت أجلس كلما شعرت بالدوران فى رأسى · جاء الليل وانا أصعد وأجلس · وعندما رأيت النجوم خلف الجبل ·· رأيت اشباحا تتقدم نحوى ، رفعت يدى مستغيثا · اقترب أحدهم وقال فى ود :

ـ ماذا تريد يا عماه ·· ؟

قلت بلهفة : ـ سامى ··

تبادلوا جميعا النظرات ·· انهم يعرفونه اذن ·· رددت اسمه عدة مرات · قال الرجل الذى كلمنى أول مرة :

ـ لا نعرف هذا الاســـــم ··

قلت فى توسل : ـ انه ولدي الوحيد ··

أخذنى أحدهم بعيدا عن الآخرين ، وقال فى عطف : ـ يجب الا تعرف الطريق اليه يا عماه ··

قلت هو ابنى ، ولدى الوحيد ، انظر هذه بطاقتى العائلية ، أنا مصرى ، وهذا جواز سفرى · هذه صورة ولدى سامى · لم أنجب ولدا سواه ، كان صديقى · وكنا نسير فى شوارع المدن نقرأ اللافتات ، وكنا ·· قاطعنى الرجل :

ـ لن تراه يا عماه .. هذا أفضل لك وله ..

قلت فى توسل : ـ جئت بالطائرة ، تغربت من أجله ، ذاكرت من أجله ، كنت أراه وأنا أجمع مواد دراساتى ، وانا أشرح الدرس للطلاب ، وأنا أشترى ما يحبه من طعام .. كنت أشترى له كل ما يهواه من لعب .. انظر هذه قائمة بما اشتريت من آلات وأجهزة حديثة تعاونه فى دراسته الهندسية .. لقد دفعت مقدما ثمن مكتبه بوسط المدينة .. اتفقت مع أحد أساتذة الجامعة من زملائى على عدة مشروعات سوف نقيمها هنا فى بلدنا ، وسـامى سـوف يكون مديرا لها ..

قال الرجل لزملائه مشيرا نحوى : ـ انها غواية الشيطان .. لم أفهم ، أى شيطان .. المشروعات أم المال ، أم سهرى من أجل ولدى . صرخت وقد تملكنى الغيظ :

ـ أريد أن أراه .. ثم من تكونون أنتم حتى تحرمونى من ولدى الوحيد .. جئت قاطعا كل هذه المسافات لكى أراه .. أتحدث اليه .. أتحسس وجهه .. أراه ، أرى نفسى وقد عدت شابا .. ماذا فعلت لكى لا يأخذ ولدي ما صنعته من أجله .. ؟!

قذفونى بعيدا .. عدت متوسلا ، زجرنى أحدهم فى خشونة ، والآخر هزنى وكأننى سكران . صرخت : ـ لن تمنعونى مهما فعلتم من رؤية ولدى الوحيد ..

سمعت صوت طلقات النار .. وارتفعت سحب اللهب ، مع سلسلة من أصوات المتفجرات .. صرخت دون وعى وأنا أندفع نحو قمة الجبل : ـ ولدى ..

جروا جميعا .. جريت .. كان الطريق وعرا وصوت طلقات النار لا يكف .. وفزعى على ولدى يلهب قلبى ، أجرى .. أصعد ، تدوى الانفجارات .. قلت لها فى خطابى الأخير .. لماذا لا يكاتبنى

سامى ·· لم تعد هى الأخرى ترسل رسائلها ·· ناديتها فى التليفون ·· قلت فى حسم : ـ أريد أن أعرف ماذا تصنعون ·· قالت فى همس : ـ ما يشاء الله ··

حقا يا أم سامى ·· ما شاء الله كان ·· وما يشاء سيكون ·· وأنا لن أفقد ولدى الوحيد باذن الله ·· ولن أتراجع سوف أصل اليه ·· أعرف أنه يتشوق الى رؤيتى ·· كان يأخذنى بين أحضانه فرحا كلما جئت الى المنزل ·· لا يكف عن الحديث ، يحكى لى كل شيء ·· ماذا فعل معه أحمد ·· وماذا قالت له نادية ·· ماذا فعلوا فى النادى ·· ماذا فعل فى الامتحان يقرأ لى موضوع الانشاء ·· يسألنى عن معنى كلمة فى آية ·· يصلى خلفى أو يصلى معى فى المسجد الكبير ·· كان يلهو وهو صغير فى ساحة المسجد الكبير ·· وعندما كبر كان يجلس ليقرأ ·· لن أدعهم يأخذونه ، سامى ·· ولدى ، هل تسمعنى ·· أنا هنا فى الجبل ، أنا أبحث عنك ·· لم أعد أرى ، سقطت نظارتى الطبية ·· فقدت حذائى ·· لم أعد أقدر على الصعود ·· أجب على ندائى يا ولدى ·· أنا من علمك أحرف الكلمات ولقنك فن الحب ·· هل تعصانى يا ولدى ·· لم أعد قادرا على التنفس ·· سامى ، تعال لكى تضعنى فى اللحد بيديك ·· ولدى ·· لم أعد أقوى على الحركة ·· وسمعت قصف المدافع ، ورأيت السماء حمراء ··

وقـررت السـفر

رفعت الأقلام ، وجمعت الصحف ، هذا آخر امتحان للثانوية. وبدأت رحلة العودة .. الطـريق الى منزلنا طويل مترب ، وحـر الصيف جعل الطريق أكثر جهامة وكآبة .. كنت فيما مضى أعشق هذا الطريق ، أقطعه فى ساعة من الزمن .. أتأمل أشجار الكافور التى تحد أرض الوسية الكبيرة .. الأشجار تخترق السحب وترتفع الى السماء .. أوراق مدببة لها رائحة محببة ، تسير معك فى الطريق فى خط مستقيم بلا اعوجاج أو انقطاع .. فى الجهة المقابلة مصرف الهوارى أو ترعة الهوارى ، كما يسميها عم عباس الجناينى .. على حواف الترعة تقف أشجار التوت .. تتجمع فى مجموعة غير منتظمة أو تتفرق فى تعزز وكبرياء ، لا رائحة لها ، ظلها كثيف ، ثمارها فى أشـهر معدودات لذيذة ونافعة ، نجلس تحتها ونلتقط حبات التوت .. شجرة عم عباس الجناينى لها وضع خاص ، فهى كبيرة وكثيرة الفروع وثمارها سمراء وحمراء وكبيرة ، وطعمها حلو لذيذ. يحرسها كلب عم عباس (فوكس) يقبع تحتها .. ولهذا فان الثمر بها كثير ، ويتساقط فى الصباح ، ويظل على حاله حتى أمر تحتها

واقف محبيا (فوكس) ‥ ميزنى (فوكس) عن بقية زملائى ، وخصنى وحدى بأكل حبات التوت السمراء بشجرته العزيزة ‥ أكلت منها كثيرا ‥ كنت أملأ بطنى ثم أشرب من ماء الزير حتى ارتوى ، ثم أرقد متأملا ماء الترعة ‥

وأحيانا يأتى عم عباس ويحكى لى حكاية الرجل الذى تصدى للخواجة الانجليزى الذى كان يسرق الحمير من الفلاحين ‥ وكنت أغضب أشد الغضب عندما يصف عم عباس لسعات الكرباج على جسد الرجل ، ومدى الألم الذى تحمله حتى استطاع أن يمسك بيد الخواجة ويقذف به على الأرض ‥

الانجليز حكموا على الرجل بالشنق أمام أهل القرية ، وحملوا جسد الخواجة فى سيارة ‥

أغضب أشد الغضب عندما أرى رجلا يضرب أو يعذب ‥ أو طفلا يبكى ‥ عمى يقول اننى مثل النساء ‥ الست وهيبة لا تبكى أبدا وتعمل فى تجارة الحدائق ، ودائما هى الرابحة ‥ يعمل عندها عشرات من الرجال ويقولون عنها انها مثل الرجال ‥ وأحيانا أتعجب عندما أرى رجلا يدلل طفله الصغير ، ويقول له كلاما مثل الأطفال ‥ يبدو أن الأمور تشابهت وتشابكت ، ولم أعد أفهم شيئا مما يدور حولى ‥ رحت أشق هذا الطريق الترابى ، لم تعد أشجار الكافور المتراصة فى انتظام تبهرنى . ولم تعد أشجار التوت بأشكالها المختلفة تثيرنى ‥ ومياه المصرف راكدة ‥ وكلب عم عباس نائم ‥ وتراب الطريق يحوم حول حذائى ، تنهض الذرات وتتشابك وتطير ثم تســـقط فى تكاسل ‥ ذبابة سوداء تطن حول أذنى ، أهشها ولكنها تعود تطن من جديد لأهشها من جديد ‥ استدرت الى الخلف ، رأيت بقرة صفراء توقفت عن الدوران فى الســـاقية ، كانها تنام ‥ وذباب كثير يطير حول رأسها ، لا تهشه ، استسلمت للدغات الذباب .

مضيت الى الأمام وحاولت أن أتذكر أمى ٠٠ لا أدرى سر الارتباط الدائم داخل عقلى بين البقر والنساء ٠٠ البقر فى قريتنا وديع مستكين ، والنساء دائبات على العمل والصمت ٠٠ وكذلك أمى لم أرها نائمة أبدا ٠٠ فى الفجر أراها خلف بقرتنا المنقطة ، وعندما أعود من المسجد أرى كوب اللبن فى يدها ٠٠ عليها أن تعمل وأن تظل تعمل ٠٠ حاولت ذات مرة أن أحكى لها حكاية من كتاب البخلاء للجاحظ ، ابتسمت وقامت مبتعدة ، لأن الحطب لابد أن يتم تخزينه فوق السطوح ٠٠ قررت أن أذهب الى المدينة ، هناك فى المدينة سوف أنسى بقرتنا وأيضا سوف أريح أمى ٠٠ قالوا مثلك فى المدينة يعمل ويعيش ويرسل نقودا الى أهله ٠٠ عندما عبرت شجرة التوت التى على رأس حقل التهامى ، كان قرار سفرى قد تم ، وبدأ الحماس يدب فى قدمى ، وانشغل عقلى بترتيبات السفر ٠٠ سمعت صوتا ينادى ٠٠ تلفت حولى ٠٠ كان ذلك الرجل الذى يرش الطريق ٠٠ طالما شاهدته فى كل مرة أسير فى هذا الطريق لم أهتم بأمره مطلقا ٠ ولم أقف لتحيته ، رغم أننى من كثرة مرورى بالطريق أصبحت على صداقة بكل الفلاحين الذين يجاورونه ٠ بل كنت أعرف مواعيد الترعة ، أقصد مواعيد الرى ٠ ففى الأسبوع المقبل سوى تغلق ادارة الرى هاويس الهوارى وتنقطع المياه من الترعة ، وتنقص حتى تكاد تجف ٠ ويقوم (بيومى الدهل) فى اليوم السابع من قطع المياه باصطياد القراميط وبيعها للفلاحين ٠ ولكن هذا الرجل لم أكن قد صاحبته من قبل ٠ أخذ ينادى ، اقتربت ٠٠ كان يعد لجلسة الغداء ٠٠ دراجة مركونة بجوار شجرة سنط جافة وقد ربطها بحبل ٠٠ أخذ يكنس الأرض بكومة القش ، ثم فرد منديلا كبيرا ملونا ٠٠ كان بالمنديل رغيف واحد من العيش (الملدن) وهو رغيف رقيق جدا كامل الاستدارة ، أبيض اللون يشوبه القليل من الحمرة ٠ ثم أخذ فى فتح صرة من قماش كان بها ملح ، وضعها فى عناية بجوار رغيف الخبز ٠٠ أشار الى أن أجلس

وأشاركه الغداء ·· كانت الساعة قد اقتربت من الثالثة ، وكنت فعلا جائعا ·· فقد أخـذ الطريق منى وقتا أطول من كل يوم ·· ووقفت متحيرا ·· الرغيف لا يكـــاد يكفى الرجل ، وأنا جائع ، والرجل يدعونى فى الحاح ويقسم أن أجلس معه ·· الرجل يعمل فى رش الطريق ·· يهبط الى الترعة ومعه جردل يملؤه ثم يعود الى حافة الطريق ويرش الماء فى شبه دائرة ويفرغ الجردل ليعود الى الترعة وهكذا ·· فاذا ما فـرغ من رش الطريق يأخـذ فى تسوية التراب ·· يعمـل هذا فى صبر دون كلل وبلا رقابـة ، حتى اذا اقتربت الساعة من الرابعة ، ويعرف ذلك من صفير قطار الرابعة المتجه الى البندر يغتسل الرجل ويتوضأ ويصلى ، ثم يجمع أدواته ويرحل الى قريته ، ليعود فى الصباح يفعل فعل كل يوم ·· ونظرت اليه ، كان ذا لحية بيضاء صغيرة ، وكان وجهه أقرب الى البياض منه الى السمرة ، يرتدى سروالا طويلا وقميصا خفيفا ، وعلى رأسه شال أبيض كان رقيقا وحسنا ·· جلس القرفصاء ونظر نحوى فى ود وقال بلهجة الآمر : ــ أجلس ··

جلست ·· تأملت وجهه وشعرت بالراحة ·· عاتبت نفسى لاننى لم أجالســـه من قبل ·· لاشك أن هذا الرجل لديه الكثير مما يروى ·· بى ولـع لسماع الحكايات ·· معظم الحكايات التى سمعتها من التهامى والجناينى وبيومى الدهل ، وأيضا من الشعراوى وعم كامل ·· كانت من كتاب (كليلة ودمنة) ، وبعضها كان يروى قصص الأنبيـاء وأفعال الصالحين ·· وكان يضـايقنى قلة هذه الحكايات رغم كثرة ما سمعت ·· قالت أمى لخالى عندما أخبرها عن ولعى بسماع الحكايات ، انه أمر خطير أن يظل ولدهـا متعلقا بالحواديت الى هذه الدرجـة ·· وطلبت من خالى أن يســأل عمه عبد الرحمن ناظر المعهد الدينى عن دواء أو طريقة تشفى ولدها من هذا الداء الذى لا يصيب الا النساء ·· وحملقت فى الرجل وهو

يحطم الرغيف الرقيق الى قطع ثم أمسك بقطعة كبيرة وقدمها الى وهو يقول فى ود : كل باسم الله ··

وأكلت ، كان الخبز ذا مذاق خاص ، لم أذقه من قبل ·· كانت أمى تتباهى بأن خبيزها أفضل خبيز فى الناحية ، وكانت النسوة يتحلقن حولها ويسألن عن السبب وهن يؤيدون ما تقول · كانت أمى تبتسم فى سعادة وتقول فى ايجاز : البركة ·· السر فى البركة · لا تعجنى عجينك وأنت غاضبة من أحد ، ولا تعجنى عجينك الا وأنت على وضوء كامل وبعد صلاة الفجر مباشرة ·· ثم اذا رفعت المرأة يدها مسبحة بحمد الله أخفضتها بالعجين شكرت الله ·· وهكذا بين حمد وشكر وتسبيح يتم العجين ·· فاذا ترك ليختمر ، فان على المرأة أن تكسر أعواد الحطب وتعدها للخبيز فى باقات صغيرة ·· وكلما قذفت بباقة من حطب الى الفُـرن ذكرت اسما من أسماء الله الحسنى ، وهكذا حتى ينضج العجين ، وتشتعل نار الفرن وتأخذ فى خبيزها ولا تذكر خلاله الا التكبير ·· أما الكلام مع الخبيز فلا يجوز ، وذكر الجيران والأصدقاء والأهل بما يسوء فلا يجوز · هكذا قالت أمى ·· وتعجبت النساء ثم تفرقن ·· أنظر الى أمى وأسألها :

ـــ أتفعلين كل هذا حقا ·· ؟!

فلا ترد ·· وعندما أكرر سؤالى ، تقول فى اقتضاب :

ـــ بل وأزيد يا ابن بطنى ··

ولقمة الخبز تتحطم داخل فمى بصوت عال ، تجرشها أسنانى فى تلذذ ، أشعر بحلاوتها على لسانى · وأبتلع اللقمة خلف اللقمة والرجل يحكى عن السفر وعن الذين تركوا الأهل وانصرفوا عن ازدحام الأســـواق ، وصموا آذانهم عن حكايات البيع والشراء ··

فالدنيا دار هجرة وابتلاء ٠٠ وخير الناس اكتفى منها بزاد الآخرة ٠٠ وقال الرجل ان فى العبادة سفرا ، الصلاة سفر ، وان فى القراءة سفرا ٠٠ وخير الناس من سافر بقلبه وتشاغل عن متاع الدنيا باعداد السفر الى الآخرة ٠٠ وأكلت وامتلأت وأحسست بالشبع الكامل ٠٠ وناولنى الرجل (كوز الماء) - فشربت حتى ارتويت ، ونطقت بالشهادة والحمد ٠٠ ونظرت نحو الرجل فاذا ببقايا الطعام وكأن الرغيف يكاد لم ينقص شيئا ، وكسرات الخبز كثيرة حتى اذا جمعتها اكتمل الرغيف ويزيد ٠٠ وكان الرجل يشرب حتى اذا انتهى من شربه ، بدأ يلملم منديله بالخبز الباقى يضع الكسرة فوق الكسرة متمتما بالحمد ، حتى اذا جمع كل الخبز ربط المنديل عليه وهكذا فعل فى صرة الملح ، ثم وضع الصرة والمنديل فى وعاء بجواره ، وقال :

- لا تؤاخذنى على طعامى البسيط ٠٠

قلت شاكرا صادقا :

- بل أكلت أطيب طعام ذقته منذ ولدت ٠٠ !

فقال الرجل :

- صدقت ٠٠

قلت مستفهما :

- وكيف عرفت ٠٠

قال فى ثقة :

- لانك لم تولد الا الساعة ٠٠

ضحكت رغم محاولته عدم احراجى ٠٠ ولكنه عاد يقول :

- الساعة يا ولدى كان مولدك ٠٠

قلت وقد شعرت ببعض الضيق :

— ولكنى أكاد أنهى دراسة الثانوية يا عمنا •• فاليوم كان الامتحان الأخير ••

قال فى ود وهو يبتسم :

— أعرف •• وأراك كل يوم تكبر عن اليوم السابق ، فقد راقبتك كل تلك الأعوام ••

قلت فى دهشة واحتجاج :

— تراقبنى •• ولماذا ••

قال : — هذا دورى •• وقد حان موعد انصرافى ••

ووقف الرجل ، ثم راح يضع أدواته على دراجته •• وقفت أنا حائرا ، هل أغلظ له القول بعد أن أطعمنى ، أم أتظاهر بالفهم حتى ينصرف •• ولكنه فاجأنى ، وقال وهو يستدير نحوى :

— سوف أعطيك رسالة حملتها لك سنوات طويلة ، وانتظرت حتى بلغت عامك هذا وأصبحت فى حالة تسمح لك بتفهم ما فيها •

اضطربت عواطفى ، واهتزت ثقتى بنفسى •• فالأمر كأنه الحلم •• درت حول نفسى وأنا أحاول أن أتيقن من حواسى •• ظهر فجأة بسيونى الدهل قادما من جوف حقل الذرة •• ألقى التحية على الرجل الذى ردها فى ود •• نظر بيومى نحوى وقال :

— تأخرت اليوم عن موعدك يا أستاذ ••

ومضى بيومى الدهل • كان يحمل فأسا وفى يده بعض أعواد الذرة •• ناديت على بيومى بصوت عال •• تلفت نحوى فى دهشة •• كررت النداء فى استغاثة •• جاء الرجل مهرولا •• قلت مشيرا الى الرجل :

— هل ذقت خبز هذا الرجل ··

قال بيومى فى ابتسامة دهشا :

— ومن منا لم يأكل من طعام عم شعبان أكثر من مرة ··

قلت فى تأكيد ، كأنى أذيع خبرا هاما لا يعرفه بيومى ولا أحد من الناس :

— أنهيت اليوم امتحانى الأخير للثانوية ··

قال بيومى فرحا :

— نعرف ، وقد دعونا لك جميعا بالنجاح ··

وهم بيومى بالانصراف ، ولكنى أسرعت وقلت :

— ولكن رغيف الخبز لم ينقص ·· ويمكنك أن تنظر ··

قال بيومى وهو ينصرف :

— انه خبز معجون بالبركة يا أستاذ ··

نظرت فاذا بالرجل يبتسم فى هدوء وقد مد يده بورقة تكاد تتفرق مزقا · ·وقال :

— خذ يا ولدى الرسالة ، فقد حان موعد انصرافى ، وعلى الله قصد السبيل ··

وانصرف ، وبقيت وحدى ·· الورقة فى قبضتى ، ولكنى أخاف من معرفة ما بها ·· رأيته يمضى فوق دراجة ، لحظات ·· ثم اختفى ، وكأن أشجار الكافور وأشجار التوت أطبقت عليه ، ولم يعد هناك الا نقطة التقاء الكافور والتوت ، وصوت عصفور يصل مجهدا الى عشه ·· وقبضة القش فى المكان الذى كان يجلس عليه ·· وعلامات على التراب تدلل على مجلسنا وطعامنا وبعض رشات الماء لازالت تلمع بفعل الشمس التى اخترقت بسهولة أفرع

شـجرة السنط ٠٠ ورفعت يدى بالورقـة ونظـرت ، وقرأت ، وصرخت ، يا قسوة الأيام ٠٠ كانت شهادة ميلادى ٠٠ اسم المولود عطية ، ولدا ، ذكرا ٠٠ اسم الأب عبد الله ، وصناعته فلاح ٠٠ لماذا لم تخبرنى يا عم عباس ٠ لماذا لم تخبرينى يا أمى ٠٠ لماذا فعلتم بى كل هذا ٠٠ أنا ابن ذلك الرجل الذى قاتل الخواجة الحرامى ٠٠ ابن الرجل صاحب الحكاية التى سمعتها مرات ومرات ٠٠ أنا ابن الحكاية ، ولكن الحكاية لم تتم ، ينقصها النهاية ٠٠ فاذا كانوا قد قد شنقوا الأب ، فالابن لا يزال قادرا على الفعل ٠٠

وقررت السفر ٠٠

مجلة أكتوبر / ١٩٩٣

الرجل الذى حبسته الأسلاك

أتذكر يوما كان فيه العشق حلالا ، وتراب الأرض من وقع حوافرنا يثير غبارا ٠ وكان الذئب يسير بعيدا ، يتوارى خلف الأشجار ٠٠ وأتذكر زمنا كان الوجد فى القلب يدفع بالدمع الى العينين ، وترتجف الأوصال ٠٠ وأتذكر ٠٠ وأتذكر أعواما وأعواما ٠٠ ومضت الأيام ٠٠

أخذت كل ما احتواه الصندوق العالق فى رقبتى ٠٠ خذلتنى نصائح أمى وحرمنى أبى من كلماته ٠٠ وذهب بريق اللهفة ٠٠ ما عاد الأمر يهم ٠٠ الثورة فى القلب ، والقلب مصاب بالتعب ٠٠ صرخ اللصان : ضاع المسروق ، أخذوا الصندوق ٠٠ لم تبق الا أيام السجن ٠٠ طعام لا رائحة له ، وماء راكد وهواء فاسد ، وأرقام ٠٠ والويل كل الويل لمن يحفر على الجدران ٠٠ أنت محصور داخل زجاجات الأدوية وممسوك بخط ردىء لطبيب متسرع يبغى غيرك ، ونداء الرجل الأسود ، واشارة أن تدخل ثم تقول ولا أحد يسمع قولك ٠٠ الأمر لم يعد يحتاج ، كل الأمور

سواء ·· خـذ دورك ولا تحرم غيرك ·· أنت اليوم سعيد ، فقـد رأيت العيد ، ودرت حول نفسك عدة دورات ·· ونظرت فى مؤشر الميزان ·· وعلمت ان الزوجة ذهبت للسوق ·· عليك فقط أن تنام ، وأن ترى فى المنام أنى أذبحك ·· أفصل رأسك عن جسدك ، وأقتلع عينيك ، ولا تقاوم ، أو ·· ان شئت افعلها وقاوم ·· حاول، أنا أتحداك ·· خذ هذا الذى أمامك تجـرعه ، ابصقـه ، ادفعه الى الأرض ، اصرخ ·· فقط عليك أن تقاوم ·· الرجل الأسود جثم على صدرك وأوسعك ضربا ·· ورأيت الدم يخرج من فمك ، سال الدم ، حبل الدم ، امتد ·· امتد من بغداد الى الدمام ، ثم زام وفار واندلق فى الأرض الرملية ·· وجلست مذموما محصورا ·· وأتذكر يوما ·· لا تكمل ، فالرجل الأصفر يقرأ فى الأوراق ، يمزقها ·· ترى صورتك تطير فى الهواء ثم تسـقط على الحذاء ·· لا ترفع وجهك ، أنت الذى فعلت فى نفسك هذا يا داود ·· أنت اشتريت الدخان ، وأكلت الفول مع الفول ·· وقلت قبل أن تشبع ، ان العالم من حولك يمضى ، وأنت وحدك النعسان ·· وجريت قبل أن يكتمل صحوك ، وأمسكت بنافذة الترام ، وطمأنك الزحام ·· أتذكر يوما كنا نحن الشبان نأكل من قلب الشجرة تفاحا وعنبا ، ونجرى حول البستان ·· نقول ونقول ، وأحيانـا نغنى ·· كان الدم الحار يتدفق بالعروق ·· ندور حول السواقى ، ونقفز فى الآبار ·· ويصرخ أحدنا مقلدا صـوت الأسد ·· ونفر من صوت الأسد ، ونلوذ خلف جدار الخـوف ونمسك بالأسد ، ويضحك الأسد ·· لنعود نأكل من جديد لحما وثريدا ·· والليل يجمعنا فى عباءة المرح ·· والنيل يمضى بجوارنا ، يحرسـنا ·· ويتمتم الفجـر ونحن نضـم القاهرة ·· يا قاهرة يـا أحلى أحلى مئـذنة ، يا سكرة ·· هات ما عندك ، فول وزيت وزيتون وزبد وبصل ، كل يا بطل ·· الجند تأكل الحصى ، وترقص بالعصا ، وتمسك بالمدافع وتحفر الخنادق ·· أبدا لن نستسلم يا عروبتنا الزكية ··

يا وحدة فتية ·· سأعود يا حبيبتى ، لا تحزنى ·· سأعود فى الموعد ·· وليلة الزفاف كانت الأوامر أن نعبر ·· وتدفقنا ·· مئات الأصوات ·· مئات الأموات ·· خذ امسك هذا العلم ، هذا القلم ·· اكتب ·· الى أمى الحبيبة ·· لا يا بطل الدانات ، لاتسقط فوق الرجال ·· ترتفع الهامات ، وقل للنصر هات ·· وعدنا من سفر ، بلا عمل ·· لم تعد الساقية ولا الجدار ·· وأتذكر يوما ·· تدفعنى زوجتى الى القرار ·· وكان القرار ، أتذكر يوما ·· قف هات الأوراق ، أنت منهم ، واننا المنتصرون ·· لا تسخر من أحد ســـوف تعلمك الأيام ألا تســـخر من أحد ·· نحن جند الله وانا لمنتصرون ·· هائمون نبحث عن عمل ، قالوا وقالوا ·· والوحدة حماها الله ·· لم نكن نقرأ ذلك الذى دفع بهم بعيدا ·· انما ·· انما الفعل ، ما فعل ··

الماضى يشترط على الحــاضر أن يقول نعم ·· يندفــع سرب الحمام الى مجازر النيران ·· قالوا ان عملك هناك ، والسكين ليس لك ·· الأصوات المختلطة مثـل الموج الهادر ينثنى الى الســـاحل وعنده يكون لا شيء ·· صخرة الشـــاطيء تأكل حبات المياه ·· تزغرد النسوة عندما حضر الرجل ··

قال ·· وقالوا ·· الوداع يا عمر ·· قال عمر ، أربعة أشهر يعود بعدها المقاتل ·· ولم يعد عمر ·· كانت الأوراق فى الأدراج ، والأدراج فى قصر الأمير ، والأمير فى جزر القمر ، واللؤلؤ والياقوت والذهب المنثور المبدور وزجاجات الخمر والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وصلوات ·· يا ليل انقضى ، وهات يا زمن الماء المالح ما عنــدك اشرب حتى تروى الظمــأ ·· واغنيــات عن الصبر وعن العسل وعن نزهة المشتاق فى حدائق العشاق ·· وعناق وقبل ··

أتذكر أن شراب الحب يحتاج الى كأس ، والكأس فى بلاد بعيدة ·· وعليك يا فارس أن تحضرها لتشرب ·· والسفر قطعة

من عـذاب ٠٠ وكل الأماني والأحلام والورد والعربات والسكن والأهل وزاد من رغبات ٠٠ اعمل لدنياك ٠٠ الصبر مفتاح الفرج ، وفرج في شمس لا ترحم وأسياد لا ترحم ، وسياط في الأيدي ، وسياط في العيون ، وتحاصره الغـربة ٠٠ ولا شيء يروى العطش الا رنين الدنيـا في الصندوق ٠٠ واياك أن تتركه ٠٠ احمله على صدرك ٠٠ لا تفرط في حبات العرق المتجمدة على شكل نقود ٠٠ وتعود على شظف العيش وعلى اللكمات والكلمات والآهات ٠٠ وغدا القاك في مقرك تزهو في سندس أخضر له بريق ، وحولك أهلك ، وأبناء ـ من زرع حصد ـ وبشراك يا مجتهد ٠٠ ولكن في الليل لم يجد الصندوق ٠٠ أخذوه ٠٠ وضعوا حول عنقـه سـكينا وقالوا يا مسكين خدعـوك ، وضربوك ، وهـربت ٠٠ جـريت ٠٠ وأكلت الحنضل ، وشربت مرارة أيام اللؤم ٠٠ وعدت ٠٠ ها قد عدت كما كنت في الأيام بل الأعوام الحالية ٠٠ بل عدت كما كنت في الدهور السابقة ٠٠ بل عـدت كما لم تعد ٠٠ لم تعـد تذكر أيام أنس العافية ، وشراب من عصير النضارة والبكارة ٠٠ لم تعد تذكر ذلك الجيل الصاعد نحو التلال ٠٠ ولم تعد تذكر الجبال ولا العلم ٠٠ ذبحوا ماضيك وعافيتك ٠٠ أكلوا أيامك ٠٠ لم تذكر شيئا ٠٠

أكلك الذئب في ليلة صيف خانقة ٠٠ ولعق الثعلب جسـدك قبـل أن تشرق شمس ذلك اليوم الغـامض ٠٠ لا تسأل كن كما أنت ٠٠ لماذا تسأل اليوم ، ولم تسأل الأمس ٠٠ ومن نحو الماضي يسترحم الذاكرة ، علها تعطيه ثمن التذكرة وخطاب موثق باسم العائلة ٠٠

كل أمانيه الآن في ورقة مختومة باسـمه الذي كان حتى لا يدفنوه في مقابرهم ٠٠

الأهرام المسائي
١٩٩٠/٩/٣

ولا يزال البحث جاريا

صرخت الطفلة شاكية ذراعها الذى سال منه الدم ‥ انتبهت الأم الى صراخ الطفلة ، ولكن كانت يد الزوج أسرع من لهفتها على وحيدتها ‥ هوت يده على صدغها ‥ تراجعت الزوجة الى الخلف وقد اتسعت عيناها رعبا ، ارتعشت يدهـا اليسرى بينما وضعت اليمنى على أول رأسها ‥ زامت الزوجة ثم اندفعت نحو الرجل فى شراسة‥ تشابكت الأيدى فى عنف ‥ فمها مفتوح ، وأسنانها تصطك ، كل همها أن تنال منه موضعا تقضمه منه ‥ أحس الزوج بأن رجولته تخونه ، وأن ما بذله من صياح قد أخذ منه عافيته ‥ تجلد ، أعاد وضع أقدامه بشكل يسمح له بالمناورة ‥ كان قد تراجع بمقدار خطوة ‥ لم تكن الزوجة تحسب لذلك حسابا ‥ اندفعت واحساسها بالنصر يهدهدها ، اختل توازنها فجأة ، كانت فرصة الزوج أفضل ، رآها هامدة على وجهها وجسدها ينتفض ‥ رفع قدمه اليمنى ليهرس رأسها ‥ تراجع فى لحظة ، كادت قدمه تلمس مؤخر رأسها ‥ اكتفى ، أدار ظهره مبتعدا ‥ شاهد الخوف على وجه ابنته ، رفع يديه لكى يأخذها بين أحضانه ، ولكن سرعان

ما هوت يداه ، ثم هوى جسده وعيناه تتسعان لتشمل كل جسد طفلته ، وتمدد على الأرض جثة هامدة ..

ازداد صراخ الطفلة ، واشتدت حرارة الغرفة ، وحملقت الزوجة فى السكين الملوثة .. تشبثت بالسكين ، وعيناها تغوصان فى الجسد الملقى ، لم يعد يصرخ ، كان نائما دون صوت .. اقتربت منه كما كانت تفعل كل صباح .. كانت تود النظر الى وجهه وهو نائم .. وقبل أن يرسم الغضب البارد ، وقبل أن يزم شفتيه فى تبرم ، تسأله فى استكانة :

ـ أتحب الشاى الآن .. ؟

لم يرد .. كان وجهه منكفئا ، وكانت شفتاه تلامسان البلاط ، كان ميتا .. جلست الطفلة بجوار رأس الأب .. كفت عن الصراخ والبكاء .. جلست فى صمت وسكون .. وكان الأب كذلك ..

اندفعت الزوجة الى حجرة النوم ، نظرت الى صورتها فى المرآة ، هالها شدة سواد شعرها ، يتهدل فى خصلات غليظة على كتفيها ، تلمسته فى عشق ناعم بارد ، رفعت بقية غطاء رأسها المفكوك .. ظهر رأسها الفاحم فى استدارة وقد انعكس عليها بعض الضوء ، استغرقها النظر فى المرآة .. الوجه الأبيض المستدير ، عيناها الواسعتان ، أنفها الدقيق .. كان يقول لها ان فمها ليس له مثيل فى جماله ، عنقها تنبت من بين كتفيها فى ليونة، طويلة وتميل نحو الأمام ، وكأنها تقدم له الشفتين ليقبلهما ، وصدر بارز فى غير مبالاة .. كان يقول لها انه يعشق جمال الأنثى من خلالها عندما انفرد بها ليلة الزفاف ، دار حولها عشرات المرات دون أن يلمسها ..

كان يصيح فى مرح صادق ، أصبحت لى كل نساء الأرض .. لم تفهم ، كانت تتعجل أن يمد يده ، أن يقطف الثمار .. تجمعت

فى رأسها كل حكايات البنات ، كل القصص ، وهى تترقب الآن قصتها هى ، ولكنه أبدا ما لمس يدها ، ظل يدور ويدور ، وبعدها عرفت أن قصتها هى الأمتع والأجمل والأكثر اثارة ٠٠ وعندما جاءت البنات فى الصباح ، لم تقص عليهن ، اكتفت بهز رأسها ، وفهمت البنات ما شاء لهن ، وأيضا فهمت خالتها وضحكت هى عندما تغامزت البنات وهن يسلمن عليه ٠٠ وكذلك فعلت خالتها٠٠ أما هو فضحك ولم يفهم ٠٠ وفى الليلة التالية وخلال ذروة نشوتها وهى فى قمة سعادتها ، روت له عن البنات ، وفهم هو لماذا عاملته خالتها بسخرية ٠٠ مجنون من يقول انه يفهم أكثر منك ٠٠ تركها فجأة ، خرج من الغرفة ، وسمعته وهو يحطم شيئا فى حجرة المطبخ ٠٠ كانت فى حاجة اليه ، صرخت منادية ، ثم ذهبت اليه متدللة ، راعها أنه منهمك فى تحطيم مائدة المطبخ ، يعمل فى جدية ، توسلت اليه أن يعود ، ولكنه لم يعد ، ولم تتكرر ذات الليلة الواحدة ٠٠

شاهدتها فى المرآة ، تقترب منها ٠٠ تذكرت ما حدث ٠٠ مرة واحدة اندفع الى ذهنها ما حدث ، حقيقة ما حدث ٠٠ استدارت وأمسكت بها ٠٠ كانت الطفلة صامتة ، عيناها تدوران بلا استقرار ٠٠ مشت خطوات نحو الأم ثم توقفت ٠٠ اهتز جسد الزوجة ، واكتشفت عقلها أنها الآن فى حاجة الى معونة ٠٠ وتذكرت حامد ٠٠ أسرعت الى التليفون ، الرنين يتواصل ولا أحد يرد ٠٠ استدارت فوجدت الطفلة أمامها ، رمت السماعة فى غيظ وصاحت : — بابا ٠٠

تعودت أن تصحو مبكرة ثم تأخذ فى ارتداء ملابسها على مهل ، ناظرة فى المرآة ٠٠ كانت تشعر بسعادة طاغية كلما طالعها جمالها فى المرآة ٠٠ دقت الساعة السابعة وسمعت صوت أبيها يأمرها بسرعة التحرك الى المدرسة ٠٠ قفزت السلم قفزا ، ثم مشت فى وقار مخترقة الصالة التى يجلس الأب فى منتصفها ٠٠ وما كادت

تنزلق من الباب الخارجى حتى راحت تعدو تجاه الشارع ، ولم تهدأ حتى كانت وسطهن ·· طالعت فى عيونهن شقاوة لم تعهدها من قبل ··

همست احداهن قائلة : ــ حمدى ·· استدارت كل العيون ، ارتبك الشاب عندما شعر بأنه موضع نظر الفتيات ، اعتدل ، قاوم خجله ، اقتحم جماعتهن ، وصاح فى مرح مفتعل :

ــ نذهب الى الحديقة ··

لم يكن معروفـا لديها ·· كانت تسـمع فقط عن علاقتـه بسلمى ·· ضحكت سلمى وصفقت احسان ·· أما هى فلم تقل شيئا ·· فى الحديقة ، جلس كل ولد مع فتاة ، كان نصيبها مع ولد أسمر لا يجيد الحديث ·· تكلمت هى عن أحلامها ·· قالت انها تود أن تصبح مضيفة فى شركة طيران لترى العالم كله ·· فى الأسابيع التالية تحدث محمود عن حبه ، نظرت نحوه فى دهشة ·· وفى الأشهر التالية ، كانت اللقاءات تتم فى مسكن زميل لحمدى ، وكانت الأحاديث تأخذ طابعا أكثر جرأة ·· كن يرقصن ويروين النكات ، وأحيانا يتبادلن مع الأولاد القبل، وعندما اقترب الامتحان، همست سلمى بخبر مزعج ، امتنعن عن الذهاب الى المسكن ·· بعد عودتها من المصيف ، أحست بالشوق الى محمود ، لم يكن الشوق الى محمود ·· انما كان لتلك الرعشة التى تصاب بها عندما تدلف مع زميلاتها الى مدخل العمارة ، ثم تلك الرجفة الخائفة وهى تخطو صالة المسكن ··

اشتاقت الى تلك اللحظة الواجفـة ·· قال محمود انه يملك مسكنا مسـتقلا ، رفضت الذهاب ·· فى الأسبوع التـالى أعدت مجموعة من الشروط·· فى الأسبوع الرابع دخلت خلف محمود ·· لم تشعر بما كانت تتمناه ، اجتاحها ارتباك مشلول ، وصداع ،

ولم تقاوم .. تكررت اللقاءات ، كانت تذهب فى ضيق ، لم تشعر بالمتعة ، ولكنها لم تقاوم ، أحست بالعجز ، ناوشتها الرغبة فى القتل ، أعدت عدتها لقتل محمود .. لم يحضر فى ذلك اليوم ، وأيضا لم يحضر فى اليوم التالى ، وأيضا لم يحضر فى الأيام والأسابيع التالية .. لم تجد أمامها الا قطة سوداء كانت تموء على درجات السلم ، أخذتها وقذفت بها الى الشارع ، صرخت وبكت .. فى المساء كان المنزل يموج بالحركة ..

قالوا ان الرجل القادم من الحرب تقدم اليها ، وأنها ، عن قريب ، سوف تزف اليه .. لم تنجح حيلتها ولا عناد أمام اصرار الأب ، لم تفلح كل الأعذار فى تأخير الزفاف حتى تم فى تلك الليلة .

فى الصباح أخذها الزوج الى باريس .. كان هناك عمله .. فى الطائرة تشاغل عنها بالحديث الى المضيفة .. بعد قليل استدعاه قائد الطائرة الى مقصورته ، ظلت وحيدة وخائفة ..

فى الأيام التالية لم تراقبه ، كانت مشغولة بالملابس الجديدة والحفلات والصديقات الجديدات .. وأيضا فى الأشهر التالية انشغلت بهموم الحمل .. كانت تود النظر اليه ، وكانت تود أن يكلمها ، ولكنه لم يفعل .. كان مشغولا بعمله .. وانهالت عليها الملابس الجديدة لها وللطفل القادم .. ووضعت طفلة ، قالوا يجب أن تعودى الى الوطن ، وعادت الى الوطن ، وظلت فى انتظاره سنوات ثم عاد .. بعد أيام طويلة قضاها فى النوم ، صارحها بأنه جاء مفصولا من عمله ، وأنه قرر العمل فى التجارة .. انطلقت عبارة (الفصل من العمل) كرصاصة اخترقت رأسها ، انفلق رأسها الى نصفين ، نصف أحس بالسعادة ، والنصف الآخر اجتاحه الشعور بالشماتة ، ونطق لسانها المحبوس ، وسلخه بكل عبارات التجريح .. لم يستسلم وخرج من ردائه الذهبى ، وأخذ يكيل لها

من نفس الكيل ، ذاكرا حفلات المسكن وسقطتها مع محمود ، انكشف المستور وبان ، وظهر العفريت ، لم تعد خائفة ، ازداد غيظها واشتعل غيظه واصطكت اللعنـات ، وصحت الطفلة فزعـة ، صرخت فلم يجبها أحد ، حتى هـدأ الاثنـان ٠٠ وفى تلك الليـلة نامت فى استرخاء وراحة ، وأعطته من نفسها ما أراد ٠٠ فى الصباح أحست ان دبيب الحياة عاودها ٠٠

وعند الظهيرة فاجأتها الرغبة فى قتل محمود ٠٠ وفى المساء التقت مع حامد ٠٠ كان جارهـا الذى يسرع اليها كلما انتـابها الاحساس بالوحدة ٠٠ قال حامد ان الزمن لم يعطه شيئا ، وانه يود الرحيل ٠٠ كان يتكلم بأسى ، لم يستمع اليها ٠٠ كانت فى كلماته مرارة ، وعلى وجهه يرتسم الألم الأسود ٠٠ وعندما عادت الى بيتها ، رأته جالسا أمام المائدة يلتهم طعامه فى نهم ، وعندما تخطته قذفها بقطعة لحم ، ودت لو أنها عادت ولطمته على وجهه ، ولكنها أسرعت اليه بعد أن استبدلت ملابسها وأعطته من نفسها ما أراد ، ورغم الشعور بالتقزز الا أنها استعذبت هذا الشعور ، طالبته بعد أن شبع بالثمن ، ساومها ، أصرت على أن تأخذ نقودا ، ولم تهدأ الا بعد أن أخذت كل ما معه ، بينما هو يضحك ويقاوم الرغبة فى الندم ٠٠ عندما تكرر منها ذلك فطن الى ما انزلق اليه من هوان ، ورفض الدفـع ورفضت هى طاعته ، وكانت المعـركة الأولى ٠٠

أول مرة ، اهتم الأب وجاء الخال وزمجرت الجدة ، واهتزت أركان الأرض ٠٠ وفى التالية ، لم يحضر أحد ، واشـــتد العراك وتنوع ، وصار متاعا للزوجين ، واشتعلت الرغبة فى صدرها فى قتل محمود ٠٠ صاحت الطفلة : — أين أبى ٠٠ ؟

تذكرت الزوجـة ان زوجها لم يعـد يحضر فى المساء ، وان غيابه قد تكرر كثيرا ، ذهبت الى أبيها وبكت لديه ٠٠ لم يكترث

الأب ، وهز رأسه ، ثم انصرف الى صلاته ٠٠ نظرت هى الى المقعد الخالى ، ثم انتفضت واقفة ، واحساس بالمهانة يحتويها ٠٠ خرجت الى الشارع وراحت تشترى كل ما يصادفها من أشياء ٠٠ وعندما دخلت منزلها وجدته جالسا يقرأ فى جريدته ، قذفت بالأشياء فى عصبية ، وصاحت : ــ أين كنت ٠٠ ؟

لم يجب ، واستمر فى جلسته ناظـرا الى الجريدة التى فى يده ٠٠ استدارت وقد هدها الانفعال ، سقطت عيناها على الشال الحريرى الأحمر الملقى على الأرض ، اندفعت نحوه والتقطته مسرعة ، رفعتــه الى أنفهــا متشممة ، انغرس فى قلبهــا عود من الصلب الساخن ، صاحت :

ــ من هى ٠٠ ؟

كانت تمد يدها بالوشاح الحريرى ، وكان جسدها ينتفض ٠٠ قام فى تثاقل دون أن ينظر اليها وانصرف ، وظلت هى تدور حول نفسها ، ثم صاحت فى استغاثة : ــ أبى ٠٠

أين أنت يا أبى ، لماذا فعلت بى كل هذا ، منذ أن تركتك أمى وأنت قابع داخل نفسك ، وكلما نظرت نحـوى ، عوى الألم فى عينيك ٠٠ استدارت واقتربت من طفلتها ، هاربة ، هالها أن تخاف من طفلتها ٠٠ حاولت أن تمسك بها ، ولكن الطفلة ظلت تراوغ وان لم تكف عن النظر الى الزوجـــة بعينين مفتوحتين ، خافت الزوجة ، وأسرعت الى التليفون ٠٠ جاءها صوت أبيها ٠٠ قالت له إن الزوج مات بعد أن حاول قتلها ٠٠ جاء الأب ، لم يكن على وجهه أثر لانفعــال ، نظر نحو جسد الزوج الراقد على وجهه ، ثم قــام وانصرف ٠٠ تشبثت به الزوجة ، ولكن الأب انصرف ٠٠ وظلت الطفلة تنظر الى الزوجة بعينين مفتوحتين ٠٠ أسرعت الزوجة وقد اكتسبت شجاعة لم تكن تنقصها ٠٠ رفعت جسد الزوج ووضعته فى فراشه ٠٠ قامت باستبدال ملابسه بملابس السهرة الفاخرة ،

أمطرته بالعطور ، أحاطت جسده بالزهور ٠٠ أسرعت الى الطبيب وأحضرت اذنا بالدفن ٠٠ فى المساء كانت تقف فى أول الصالة تتقبل العزاء ٠٠ كانت تبدو فى ملابس الحداد ملكة من ملكات الجمال ٠٠ وعندما انفض الناس ، تذكرت الطفلة ، أسرعت تبحث عنها ، ولم يطل بحثها ، فقد كانت الطفلة تقف فى مكان سقوط أبيها ، تقف بلا حراك ٠٠

وعندما حاولت جذبها لتبتعد عن المكان رفضت الطفلة باصرار ٠٠ توسلت اليها الزوجة ، ولكن الطفلة لم تتحرك من مكانها ٠٠ فى اليوم التالى صاحت الطفلة : ـ أبى قادم ٠٠

تحركت الزوجة نحو قسم الشرطة لتروى لهم ما حدث ، لعلهم يخبرونها عن قاتل زوجها ٠٠

النهضة / ديسمبر ١٩٨٩
الأهرام/١٩٩٠

ودفعنى داخـل الزجاجة

قال لى :

ـ يذكرنى الموقف الذى نعيشه بحكايات ألف ليلة وليلة ، وخاصة حكايات الجن والعفاريت التى تظهر فجأة أمام البطل وتقوم بحل مشاكله دفعة واحدة ، فـاذا هو قد طار فى السماء وقطـع المسافات ، ووصل أخيرا الى الأميرة الجميلة التى تحبه ويتزوجها ويعيش ملكا سعيدا . أو هو فجأة قد صار له سلطان عظيم ومال وفير وجنة عرضها بلاد وبلاد . قد شبعت من تلك الحواديت رغم أننى أحيانا أتمنى أن أجد ذلك العفريت أو الجن يظهر لى من فم زجاجة (سفن أب) مرددا .. شبيك .. لبيك .. عبدك وملك ايديك . وساعتها سوف أطلب منه بسرعة الكثير من المال ، والمال الدولارى بالذات ، أو على الأقل المال اليابانى أو الألمانى الغربى .. الكثير من المال ، ثم الكثير من المنازل لتأجيرها ، ثم بعض الطلبات الخفيفـة مثل حدائق عنب بنـاتى لحبى للعنب البنـاتى وحدائق الفاكهة المختلفة مثل المانجو والبرقوق والتفاح . وبعد ذلك سوف

أطالب بجواز سفر صالح لكل البلاد ، عليه تأشيرة دائمة للدخول لأية دولة متى أشاء ٠

وبما أنه عفريت وجن سريع الفعل والحركة خفيف اليد ، فانني سوف أطالبه بأن يأخذني فورا للفرجة على كل بلاد الخواجات، لكى أرى كيف يعيش الناس عيشة الناس ٠ فقد زهدت عيشة القطط الضالة التى يعيشها أمثالى من كبار صغار الموظفين الذين يقبضون مئات الملاليم التى لا تصلح لشراء عشرة لترات من البنزين ٠٠ آه لو جاء العفريت أو ظهر لى فى المنام ، لركبته فى الحال وخرجت من تلك الديار العربية التى لا تزال تعيش فى (طبق مهلبية) لا تدرى من أمر نفسها شيئا ٠ ولعن الله الكوابيس وأبناء ابليس الذين جعلوا حياتنا (خرسيس فى فرسيس) ٠٠

وجاءنى فى اليوم التالى وقال :

ـ ألم أقل لك اننى أحلم ليلة بعفريت وأ جن يأتينى من خلف الحائط المتآكل فى حجرتى ، أو يتسلل خارجا من زجاجة دواء قرحة المعدة الذى أتناوله كل صباح ومساء ، أو حتى يخرج من درج مكتبى ، وأنا أبحث فيه عن أوراقى التى فقدتها منذ عام ٠ أعلم يا أخى ٠٠ فانه قد تم المراد من رب العباد ، وجاءنى العفريت٠٠ صحيح انه صغير السن قليل الحجم ضعيف البنية ، الا أنه كثير الحيل ، يميل دوما الى التسويف ٠٠ ويبدو أنه من نسل أسرة اشتغل أفرادها فى دواوين الحكومة ، فقد ظهر فى تكاسل ، وقال لى وهو يتثاءب : ماذا تريد ٠٠ ؟ فقلت فى لهفة : أريد دولارات أمريكية أجنبية ٠٠ قال وهو يجلس مرتاحا أمامى : ثم ماذا ٠٠ ؟

قلت : أحلم بالسكنى على النيل ٠٠ قال وهو ينظر نحوى فى ضيق : ماذا تقصد ٠٠؟ قلت : أريد شقة فى عمارة عالية تطل على النيل ٠٠ فقال فى سخرية : قديمة ٠٠ هذا طلب صار مستهجنا ٠٠ فقد بطلت موضة السكنى على النيل ٠٠ بل ان الأحياء التى كان

يطمع فى سـكناها طلاب الهندسة والطب بعد تخرجهـم ، وعمال السباكة وأصحاب ورش السيارات ·· ويحلمون بالحصـول على شقق فيها صارت موضة قديمة · قلت : وأى أحياء تلك ·· قال العفريت (فى ثقة) : كانوا قديما يتمنون السكنى فى الزمالك أو فى جاردن سيتى أو فى الحلمية ، أو فى قصر النيل ·· بل ان الدقى والمهندسين كانت من مناطق الأحلام ·· تصور يا سيدى أن أحياء مثل جاردن سيتى والزمالك صارت أحياء قديمة مهملة قذرة، يأنف الكبار السكنى فيها ··

قلت مغتاظا : وأنت ·· أين تسكن ·· قال فى تفاخر : فى اسطبل عنتر ·· قلت فى دهشة : ماذا تقول ·· قال : يا سيدى أنت عبيط ·· آسف ·· قلت : لا عليك ، أكمل ·· قال : القاهرة الآن أصبحت حيا واحدا ·· أنت لا تدرى الفرق بين شارع سليمان وشارع عدنان بمساكن عين الصيرة ·· فقد صارت القاهرة الكبرى تعيش فى زمن عجين الفلاحة ·· قلت فى لهفة : وما هو زمن عجين الفلاحة ·· ؟ قال ساخرا : أو لاتدرى ما هو ·· ؟!

قلت للعفريت : ماذا تقصد بقولك اننا نعيش فى زمن عجين الفلاحة ·· ؟ قال : معناه زمن عجة البيض ·· ثم جلس مسترخيا وراح يشرح لى الفرق بين الكشرى وبين زمن عجة البيض ·· وقال مفسرا : اننا الآن فى حالة اختلاط ، فأنت لا تدرى ما الحقيقة ، وما الخدعـة ·· بل لا تدرى الفـرق بين القول الصادق والقول الكاذب ·· اننا باسم الاسلام نسرق ·· وهذا ما حدث فى شركات الاستثمار · وباسم القانون نسرق ·· وهذا ما حدث عندما واجهنا مشكلة الريان وغيره ·· واننـا باسم الاسلام ننسف الخمـارات والملاهى وأيضا دور العبادة ·· ونقتل ونتشاجر ·· وباسم الاسلام أيضا نقوم بسجن الأبرياء ·· حاربنا الثورة الاسلامية فى ايران بكل سلاح ملكناه وأخذناه من الغرب ، ثم اعترفنـا بها وصالحنا

الثورة ٠٠ ثم استولى أحدهم على السلطة وأخذ الكويت ٠٠ ثم جاءت جيوش الغرب الأمريكي لكي تؤدي دورها في ابادة الهنود الحمر ، أقصد العرب الحمر ٠٠ قلت للعفريت : هذا يكفي ٠٠ قال : بل خذ عندك ، الكل يتكلم في السياسة ٠٠ كل الناس تحلل وتعلق ٠٠ كل الاذاعات تقلد اذاعة لندن ٠٠ آلوه يا جابر ٠٠ أنت بتتكلم منين ٠٠ جابر يتحدث اليكم من (هونولولو) ٠٠ ويقرأ من (جرنال الهونولولو) كلاما ٠٠ برافو الاذاعة ٠٠ الآن صارت الأخبار عال العال ٠٠ صارت عجة بيض ، يشرب من الحنفية) ٠٠ قلت للعفريت : كفى ، أنا الآن آمرك باحضار الفلوس الأمريكاني ٠٠ أنا عاوز فلوس أمريكاني كتير جدا ، والمفروض انك عفريت ، هات بقى ٠٠ استراح في جلسته وقال : هذا أمر سهل ، سأقول لك أغمض عينيك ثانية واحدة ستري الفلوس وهات شوال وعبيها ، ولكن ٠٠ قلت بسرعة : لكن ماذا ٠٠؟ قال: هل أنت ضامن أن الفلوس الأمريكاني ها تفضل هي الفلوس الحقيقية ، مش يجوز يحصل لها اللى حصل للدينار الكويتي ٠ قلت : غير معقول ٠٠ غير معقول ٠ قال : وما المعقول في زمن عجة البيض ٠ قلت في دهشة : هل يمكن أن تقوم دولة بالاستيلاء على أمريكا والغاء الدولار الأمريكاني ٠٠ قال : محتمل جدا ٠٠ قلت : كيف ٠٠ ؟

قال العفريت وقد شعر انه استحوذ على سمعي وفكري : يبدو أنك ساذج ، ولولا سذاجتك هذه لكنت الآن من رؤساء التحرير ٠ ولا أدري كيف تظل تعمل في الصحافة كل هذه المدة مجرد (صحفي) حاف ٠٠ لا مدير تحرير ولا رئيس تحرير ولا حتى رئيس قسم ٠٠ مجرد صحفي ٠٠ وكلها كام سنة وتطلع على المعاش وتقعد في النقابة، وساعتها سوف تختلق الأكاذيب وهات ياحكايات عن بطولتك أيام عبد الناصر ٠٠ تصوروا ، لقد عرض على عبد الناصر رئاسة تحرير نص الدنيا ٠٠

ويهمس اليك أحدهم بأن نص الدنيا لم تكن قد ظهرت ٠٠ فتقول ببلادة ٠٠ آسف أقصد رئاسة تحرير الجمهور المصرى ٠٠ وهكذا تختلق الحكايات حتى تصدقها أنت ، ولن يصدقها غيرك ٠٠ فاذا شعرت بأن الجميع لا يصدقونك وأنك أنت الوحيد الصادق ٠٠ ساعتها سوف تنهار وتتحول الى (ماكينة حقد) عجوز ، تلعن كل الأيام والليـالى والرؤسـاء والوزراء وكل بلاد الدنيـا ، لأنها لم تنصفك ٠٠ قلت فى غيظ شديد : كفى يا عفريت لا داعى للغلبة ، أنا لا أريد أن أكون رئيسا ولا مديرا ولا حتى معاونـا ٠٠ يكفينى ما أنا فيه من مجد وشهرة ٠ سمعت العفريت يضحك بصوت عال ٠

قلت فى غضب ما الذى يضحكك ٠٠ ألا تصـدق ما أقول ؟ ٠ نعم أنا لا أريد رئاسة ولا ادارة ولا أى شيء ٠

قال العفريت : أضحك من حـكاية الشهرة والمجد هذه ٠٠ قلت فى حـدة : نعم ، يكفينى المجد وتكفينى الشهرة ٠ قال وقد تحول صـوته الى نحيب : مش لما تجيلك الشهرة الأول ٠٠ أنت يا عينى لا تملك شهرة ولا مجد ٠٠ هل بدأت تصدق أكاذيبك من الآن ٠ صرخت فى العفريت : لا تقل هذا ٠٠ أنا أديب مشهور ، كتبت بيدى هذه خمسين كتابا فى الأدب ٠٠ و ٠٠ قال مقاطعا : وهل أنكرنا عليك ما كتبت ٠ ولكنك كتبت وطبعت ونشرت ، وهذا وحـده لا يكفى ٠٠ أنت فعلت هذا ، ولكن ما نتيجـة ما فعلت ، ما حصيلة ما كتبت ٠ هل قبضت ثمنا ٠٠ هل حصلت على مكافأة ، هل تغيرت الناس من حولك ٠٠ أنت كتبت ولكن لم يقرأ أحد ٠٠ أنت لا شيء يا سيدى الأديب ، واعذرنى اذا قلت لك ذلك ٠٠ اننى حزين على حظى لأننى ظهرت لشـخص مثلك ، كل طلبه فلوس أمريكانى ٠٠ شخص عبيط لم يعرف بعد أن هناك ما هو أهم وأغلى وأفضل من الفلوس ٠٠

قال العفريت وهو يضـع ساقا فوق ساق : انك لم تدرس

التاريخ جيدا ، لأنك لو درست التاريخ وفهمته لعرفت أن كل شيء ممكن ، وأن أحوال الناس غير مستقرة على حال واحدة ، وأنها دائمة التغير ٠ فلا يظل الغنى غنيا ، ولا الفقير فقيرا ، ولا الصديق صديقا ، ولا العدو عدوا ٠٠ انما التقلب السريع والمفاجيء هو ما ذكره التاريخ ٠٠ وأمريكا ليست الاستثناء ، بل هي دولة كبرى اليوم ، وغدا ربما تصبح من الدول المغلوبة على أمرها ٠٠ كان الأندلس وكان ٠٠ ثم أصبح ٠٠ وكانت تركب بلاد العثمان ، وكانت ثم أصبحت ٠٠ وكانت روسيا القيصرية ٠٠ وكانت ٠٠ ثم أصبحت تتسول القمح من أستراليا ٠٠ وكان العراق ٠٠ وكان ثم أصبح ٠٠ لا كبير ولا عظيم الا الله ٠ المخلوقات سواء أكانت بشرا أم دولا ، أم أشياء مادية قابلة للتغير وأكثر الأمثلة دلالة على ذلك الزواج ٠٠ فأنت وزوجتك تعيشان في السراء والضراء ٠٠ هي تتألم لألمك ، وتسعد لسعادتك ، وتتمنى لك العمر المديد ، والجسد الرشيق ٠٠ والمال الوفير (خذ من عمرى واديله) ٠ فاذا دار العراك ، وانغلق باب التراحم بين الزوجين ، انقلب الحال ، وظهرت في الحال كل عيوب الزوج وكل متاعب الزوجة التى ترفع يديها الى السماء وتدعو على الزوج بقصف العمر وخراب الدار ٠ بل وتذكر لكل جار عن زوجها كل عيوبه كاشفة حقدها المرير ٠ وهكذا ينقلب الحال بالزوجين ويصبح العداء بين كل منهما هو الأمر المعتاد ، بعد أن كانا ينعمان بالسعادة ٠ وأيضا الانسان نفسه ٠٠

قلت فى عصبية : كفى ، تحرك فورا لتنفيذ طلباتى والا ٠٠ ضحك فى خشونة ، وقال مقاطعا : والا ماذا ٠٠ أظن أنك قادر على أن تعيدنى الى زجاجة (السفن أب) التى صعدت منها ٠٠ هذا يا ابنى أمر محال ٠٠ أنت لا تقدر ٠٠ قلت فى غضب : بل أقدر ، هذا حقى ٠ قال فى برود : هذا حقك ، ولكن لا تقدر فعله ، فاذا سقطت القدرة عن الحق ، صار باطلا ، بطل مفعول الحق يا سيدى الغلبان ٠ ألم يكن الحق مع الكويت ومع عم عثمان ٠٠ قلت :

بل عندى القوة ٠٠ ثم من هو عثمان هذا ٠٠ ؟ قال العفريت الجنى : أو حقا تريد أن تعرف من هو عم عثمان ٠٠ ؟ قلت : نعم ٠٠

قال : اذن فاعلم انه رجل صاحبنى زمنـا ، وكان أول من طلب منى الفـلوس ٠ ولما كانت الفـلوس على زمن عم عثمان تعنى النقود الذهبية ، فقد أحضرت له منها جبـلا ثقيـلا كلها فلوس مستديرة مرسوم عليها صورة الخليفة فى بغداد ، ونسى عم عثمان وجـودى ، مع رؤيته للفـلوس الذهبيـة ٠ وراح يعـدها ويحصيها ويضعها فى جوالات عديدة ٠ ثم راح يحصى الجوالات ، ويضعها فى بنادر الدار ٠٠ وراح يكرر فعل ذلك ، وكلما انتهى من حصرها ـ وكان هذا يأخذ منه شهورا طويلة ـ أعاد العد والاحصاء٠٠ وهكذا ٠ بل انه لم يكن ينام الليل خيفة اللصوص ٠٠ ولم يكن ينام الليل خوفا من أهله ٠٠ وصارت الفلوس الذهبية هى الهدف ، وهى الغاية ، حتى جاءه ذات يوم مرض أرقده وأعجـزه عن الحصر ٠٠ ودنوت منه مستأذنا حتى أسرى عنه ، فتذكرنى فجأة وقال : اصنع لى هرما من الحديد أضـع فيه ذهبى لا يقدر على دخوله أحـد ٠٠ فصنعت له ما أراد ، ورقد على باب الهرم مرتاحا ، وان كان يشكو علة فى صدره ٠

ومع هذا فقد صرخ وقال : ومن أدرانى بأن أحـدا لن يدخل خلسة الهرم ويسرق ذهبى ٠٠ اصنع لى بابا من زجاج أنظر فيه الى الداخل كلما اردت ذلك ٠٠ فصنعت له ، وراح ينظر من الزجاج الى نقوده الذهبية ٠ ولكن لم يمض وقت حتى صرخ قائلا : أدخلنى أنام بجوار ذهبى ، فأنا لست مطمئنا ٠ فأدخلته وجعلت له قبـة داخل الهرم٠ فلما اطمأن على ذهبه ، قال : والآن نفكر فى الاستفادة من هذا المال ، فاسـأل لى فى السوق عن سـعر الريـال والمكيال والدرهم والمثقال ٠٠ فأتيته فى الحـال بالخبر اليقين من سـوق بغداد بأن الدينـار المرسوم باسم الملك الذى مات ٠٠ مات والغى

استخدامه ، وتعــذر على الناس استعماله بأمر الملك الجديــد ..
بل انهم قالوا ان من يضبط ومعه هذا الدينار فســوف يعدم فى الحــال .. وما أن ســمع عم عثمان بقيــة الكلام .. حتى مات فى الحال . ووقفت على رأسه مندهشا . فلو كان قد أمرنى أن أغير له الدينار لفعلت فى الحال ، ولكنه نسى كل شيء .. وظللت واقفا على رأسه سنوات حتى جاء اللصوص وثقبوا جدار الهرم وأخــذوا الفلوس .. ورأيت أن أذهب الى حال سبيلى .. وما كدت أفعل حتى جاء من حرمنى نعمة الحرية ، وأسكننى فى القمقم ..

صرخت فى العفريت الجنى : اذهب ، لا أريــد منــك مالا ولا شققا ولا شيء على الاطلاق . ولكنه رد فى برود شديد : ليس لك فى أن تطردنى من خدمتك . قلت : ولكنى لا أريدك حقا ، فقد سخرت منى وسخرت من أحلامى وسفهت آرائى ، لهذا لا أريد أن أراك .

قال : لأنك لم تفكر بشكل علمى عصرى .. فالعفريت الجنى كان فى القــديم يفعــل كل ما ذكرت .. يحضر الأمــوال ويقيم السرايــات ويأتى بالجوارى .. بل وأحيانــا يجعل من صاحبــه شاهبندر تجار . ولكن عفريت اليوم لم يعد مثل عفريت الأمس ، وانسان اليوم لم يعــد مثــل انسان الأمس . وبالتــالى اختلفت الطلبات .. فالبنوك مليئة بالفلوس وأصغر نصاب يســتطيع بدون حاجة الى مساعدة عفريت جنى مثلى أن يأخذ منها ما يشاء . وأيضا حكاية الفيلات والسرايات هذه أصبحت من الأمور التى لا تحتاج الى كثير عناء . كل ما فى الأمر قليل من الدهاء أو العمل فى وظيفة ذات صلة بالناس وأعمالهم .. أما مسألة الشــــاهبندر هذه فهى أيضا موضة قديمة وقد أصبح الآن كل تاجر هو أغنى تاجر . حتى بائع المانجو السريح فانه يقول عن نفسه انه شيخ تجار المانجو فى البر كله . والدعاية جعلت من بائع بسكويت شاهبندر لا ترد له

كلمــة ٠ بل جعلت من بائـع لعب أطفال وبالونـات رئيسا لكل التجار ٠ فكن ذكيا واطلب مطالب عصرية ٠ الناس الآن يسرقون بالكوم بل يسرقون دولا بأكملها ٠ تغير العالم يا سيدى المسكين ٠ لم يعــد كما كان ٠٠ الحيل والألغــاز وفنون التــلاعب بالألفــاظ والعبارات ٠٠ أنت اليوم هندى وغدا باكستانى ٠ أو أنت اليوم شيوعى وغدا رأسمالى ٠٠ أنت اليوم ممثل تقول كلاما لا تؤمن به لكى تقول ضــده فى الغد ٠ ثم تعود ثانية وتقول كلاما ثالثا ٠ أنت الآن تعيش فى زمن عجة البيض ٠ والعفريت ابن العفريت هو الذى يخرج من تلك العجــة دون أن تلسع قفــاه ٠ وأن يقف فى حرص على حافة المقلاة ، ولا يسقط فى السمن المغلى ، ولا يقع فى نار الموقد ٠٠

صرخت بأعلى صوتى : اذهب عنى ٠٠ قال فى اصرار : ولأنك لم تطلب منى ولم تستفد بى ولم تستغل وجودى ، فانه صار من الضرورى حبسك فى زجاجة (السفن أب) بدلا منى فأنت لم تعد ابن عصرك ٠٠ وأنا الذى يحق له العيش بدلا منك ٠٠

ثم دفعنى الى داخل الزجاجة ٠٠ و ٠٠ عرفت ٠

الأهرام ـ ١٩٩١

عندما تقدمت نحوى قلت انها تراجعت عن رأيها . قررت أن أتنازل عن مطالبى ، وتقدمت نحوها وقد زغردت فرحة صادقة فى قلبى . ورغم ان وجهى قد اكتسى باللامبالاة الا أن أرنبة أنفى وأذنى اليسرى راحتا تهتزان فى توتر واضح أحسست به ، وتماسكت حتى لا أندفع اليها مهزوما . كانت قد واجهتنى تماما ، قالت :

ـ لن تفلت من العقاب ..

لم أصدق ما سمعت منها ، سحبت وجهى وابتعدت بكل جسدى . قالت فى برود :

ـ لقد زال عنى ألم هائل عندما ذهبت أنت بعيدا عنى ..

حاولت أن أفهم جملتها الطويلة . قلت فى ارتباك واضح :

ـ أريد ملابسى ..

قالت فى حسم :

ـ ليس لك شيء عندى ٠٠

قلت بعصبية واضحة :

ـ لا يهم ، لكن تذكرى أننى حذرتك ٠٠

أخذ أخى بيدى وجذبنى نحوه ٠٠ كنت قد نسيت وجـود أخى الأصغر ٠٠

قلت وأنا أحاول التمسك بكبريائى كرجل :

ـ فعلا لا يهم ٠٠ أنا لا أريد شيئا ٠٠

قال أخى فى ود وتعقل :

ـ حسنا ، هيا بنا اذن ٠٠

ابتسمت فى سخرية من نفسى ، فعلا لماذا لا أنصرف ، الملابس لا تعنى شيئا ، لقد أخذت منى كل شىء ٠٠ حياتى وشـــبابى ومســـتقبلى ٠٠ !

قالت فى قسوة :

ـ لا أريدك ، يجب أن تذهب ٠٠

ذهبت ، تركت لها كل شىء ٠٠ حقـائبى وسجادة الصـلاة والمسبحة ٠ وتركت لها الدواء وأقلامى الذهبيـة ، وأيضـا ذلك الصندوق الزجاجى الذى كنت أعتز به كثيرا وأحافظ عليه نظيفا قابعا أمامى على المائدة التى أكتب عليها ٠ كان تذكارا غاليـا من أبيها ، حمله معه عندما كان يدرس فى لندن وعاد به ووضعه أمامه طوال حياته ٠ وعندما تزوجت ابنته أهداه لى ٠ قال انه من البلور ، وان وجوده على المكتب سوف يساعدنى كثيرا ٠ لم يكن لى مكتب ٠ تحايلت على مائدة صغيرة حتى صارت لى مكتبا ٠ وضعت الصندوق الزجاجى أمامى على المائدة ٠ كنت أنظفه كل مساء وأضع به نقطا

من العطر ، ثم أضع عليه قلمي الأسود ٠٠ أعطته لي عندما تعارفنا قالت وقتهـا :

ـ كنت أتلهف شوقا لمعرفة عملك ٠٠ أخبرتها أنني أرتزق من كتابة حكايات للأطفال ٠ وأحيانا أكتب اعلانات مدفوعة الأجر لبعض الشركات ٠٠كنت أبذل جهدا كبيرا في صياغة تلك الاعلانات حتى تبدو وكأنها مقالات صحفية باهرة ٠٠ وعندما كتبت اعلانـا مطولا في عـدة صفحات عن المحطات النوويـة لتوليـد الكهرباء ، أعطاني الزميل الذى كلفني عشرة جنيهات نظير هذا العمل ٠ وبعد أيام قال لي انهم ترجموه الى عدة لغات ونشرته الشركة في صحف عالمية كثيرة ٠٠ فرحت بنفسي ، وذهبت الى مطعم النـادى وأكلت طبقا كبيرا من المكرونة ٠٠

قالت لي انها سعيدة لأنها تزوجت من رجـل يهتم بالأعمال الخيالية ٠ كانت تعطيني قطعة كبيرة من الشيكولاتة عندما ترى مقالا لي أو قصة ٠ كانت تجلس بجوارى وتنظر في انبهار الى اسمي المنقوش بحروف سوداء صغيرة أسفل المقال أو القصة ٠٠ اشترت لي هذا القلم الأسود بنصف راتبها ٠ وقالت وهي تعطيني اياه ، انها تفضل أن تجوع على أن تراني أكتب بقلم مهشم ، كنت قد كسوته بقطعة من المطاط ٠ وعندما أمسـكت بالقلم الأسود لأول مرة ، ورحت أحاول الكتابة لم أستطع أن أخط كلمة واحدة على الورق ٠ وعندما عادت من عملها وسألتني عن عبقرية القلم ، وكانت في لهفة لكي تقرأ آثار هذه العبقرية ، خجلت من نفسي ، وأسرعت الى ورقة كانت بها محاولة شعرية ركيكة ، وأطلعتها ٠ قالت في انبهار :

ـ أرأيت٠٠ انه قلمي الغالي الذى ألهمك هذا الكلام الجميل٠٠

كان كلاما حلوا ، مثل عذابات القلب العاشق لصخرة جليدية تقبع على حواف البحر الأسود ، كان كلاما لا معنى له ٠٠ وضعت

القلم الأسود على الصندوق الزجاجى ٠٠ وظللت متمسكا بقلمى العجوز المتداعى الذى تشده قطعة المطاط ٠٠ وعندما قالت لى اذهب بعيدا عنى ، لم تدعنى آخذ القلم الأسود ، وأيضـا القلم ذا قطعة المطاط ٠٠ وعندما غادرت المنزل ، تذكرت حذائى الأبيض ، كنت قد اشتريته من مدينة نابولى ، عندما أرسلونى الى ايطاليا لكى أتعلم فن رسم حكايات الأطفال ٠٠ قالت لى فى حزن محض ولهفة واضحة :

ـ أريد طفلا منك ٠٠

شعرت بالغرور ، وتملكنى الفرح ، وتصورت أننى فارس أحلامها ولم أتغير ٠٠ أمسكت برأسها الصغير ، وقلت فى سعادة :

ـ سوف يحدث ٠٠

ولم يحدث، كنت أرقب الأطفال الصغار فى معارض الكتب٠٠ وكنت أشترى البالونات الملونة الكبيرة وحبات الملبس وأوزعها على الأطفال ٠٠ كنت أزور الملاهى وأراقب طواحين الهواء ٠٠ وعندما سافرت لاستلم جائزتى ، قضيت أياما طويلة فى حدائق الأطفال ٠٠ أضع النقود فى صناديق الحكايات المقلدة ٠ وأتبارى مع الأولاد فى كرة الطوق وشمعة سندريلا ٠ وعندما حصلت على العروسة البيضاء ، وضعتها فى دولاب ملابسى ٠٠ كانت أحلامى كثيرة ٠٠ وكانت حكايات الأطفال التى أكتبها تسلينى ٠٠ وكثيرا ما سعدت بالخطابات القليلة التى وصلتنى ٠٠ قالت لى وهى ترمى فى وجهى بخطاب لطفل :

ـ كان يجب أن تعمل فى عمل مفيد ٠٠

ضحكت فى دهشة ، كنت أظن أنها سعيدة بعملى وأننى فعلا اهتديت الى عمل مفيد ٠٠ ولكن فى اليوم التالى والأيام التى توالت

بعد ذلك ، كانت تحدثنى عن الرجل الذى اشترى منزلا كبيرا بجوار البحر ٠٠ وعن الآخر الذى أعطى زوجته فى عيد ميلادها عقدا من لؤلؤ ٠٠ وعن ثالث ، وعن رابع ٠٠ وتعودت سماع الحكايات عن رجال أعطوا الزوجات لآلىء وعربات ، وأفدنة وتذكارات ٠٠ وعن الأهل الذين يسخرون منها عندما يرونها فى ملابسها الفقيرة ٠٠ وكنت كلما رفعت وجهى نحوها ، ألاحظ زيادة النقط السوداء على وجهها وخطوطا زرقاء أسفل رقبتها ٠٠ وأخفض بصرى ، والتهم طعامى مغموسا بقليل من الصبر ٠٠ وأحكى أنا أيضا عن رجل غير التاريخ وشيد أهرامات المعرفة ٠٠ وساعتها ترفع الأطباق فى ضجة عالية ، ثم تنادى على جارة بعيدة ، وتسبها لأنها لم تسمع النداء ٠٠ واتكوم فى فراشى ، ألوذ بخيالى أسأله الفرج ٠٠ وكثيرا ما كتبت حكايات عن زوجتى ٠٠ أذكر ان حكاية (الحذاء المفقود) كانت عنها ٠٠ طفلة تبحث عن حذاء أمها المفقود ، وتخشى على أمها من الحفاء ٠٠ وكتبت قصة (النمر الذهبى) عنها أيضا ٠٠ وسألنى زميلى الرسام عن بئر الأحلام التى أغطس فيها كل ليلة ٠٠ ضحكت وأسرعت الى البيت،وقابلتنى فى برود،وسألتنى فى قسوة أن أفارقها بالحسنى ٠٠ ولما أبديت دهشتى ، تحولت الى الساحرة الشريرة فى قصتى (شجرة البلوط) ٠ وجلست أتأمل (مهمومة) الساحرة العجوز التى تحاول طرد أحلام الهناء من بيت الأميرة تغريد ٠٠ ولكننى فشلت فى وضع نهاية للقصة ، ولم أستطع نشرها ٠٠ وهددنى عبد الستار رئيسى فى العمل بالطرد لأننى أصبحت كسولا ٠٠ لم أعد أعرف كيف تكتب الحكايات ٠٠ كانت كل حكاياتى بلا نهاية ٠٠ كنت أكتب نصف حكاية ، وأتركها ، لكى أكتب نصفا آخر لحكاية أخرى ٠٠ لا أدرى كيف أكملها ٠٠ كانت ملابسى فى الدولاب، ورفضت اعطائى بعضا منها٠٠ واكتفيت بارتداء نصف ملابسى ٠٠ لم يكن للحذاء أهمية ، واكتفيت بخف صغير كان بقدمى عندما غادرت المنزل ٠٠ وعندما سألونى عن

القميص قلت ان الزمن تغير وصار الجو حارا ، وان على الانسان أن يكتفى بما يستر العورة ٠

ولما أحضروا لى قميصا جديـدا قلت انه يصلح كغطـاء فى الليل ٠٠ ورحت أكتب الحكايات ٠٠ ونجحت فى وضع نهايـات لحكاياتى٠٠ كتبت لكل حكاياتى نهايات ،٠٠ (الساحرة الشريرة) يجب أن تموت ، و (الذئب المسعور) مات أيضا ، و (الشاطر حسن) تزوج من الأميرة (زمن الحسن) ٠٠ وعندما سألنى زميلى اسماعيل الرسام عن بدايات الحكايات ضحكت ٠٠ فقال كيف أرسمها اذن ٠٠ قلت لأنك جاهل تبحث عن البداية ، رغم ان البداية معروفة لك وللجميع٠٠ وقلت له ، ان أمه كانت تحكى له الحكايات، ولكنه كان ينـام قبل أن تتمها ، ولم يسمع أبدا نهاية لحكايـات أمه ٠٠ أنا الآن أكتب له النهايات ٠٠ النهايـات التى ينام قبلها الأطفال ٠٠

أما (يحكى أن) أو (فى قـديم الأزمان كان) ، لم تعـد ذات أهمية ٠٠ قالت لى ، أحبك ، وقالت : انتظرتك دهرا حتى جئت ٠٠ وقالت لى : هذه أول ليلة لنا فى عشنا الجديد ٠٠ سوف أكون لك يا هارون جارية ، وسوف أكون لك يا شاطر حسن فرط الرمان ٠٠ سوف أكون وزيرتك وصديقتك وعشيقتك وأمك وأهلك وخـدمك وحشـمك ، وأكون لك عونا على الدهر ٠٠ فقط قـل لى أحبك ٠ قلت لها أحبك ٠ قالت يا فرحتى ، وماذا أفعل بحبك٠٠ هل آكل حبا ٠٠ وارتدى حبا ، أنت لم تعد تصلح لشىء ، اذهب ٠٠ وذهبت ٠٠ لم أقاوم ، لم أحاول أن أتعـارك ٠٠ كنت قد عرفت النهاية ٠٠ وقلت فى توسل أعطنى حبى ٠٠ قالت فى برود : ليس لك عندى من شىء ٠ قلت وصندوقى الزجاجى ودوائى ومسبحتى ٠٠ قالت لم يعد لك حق فى شىء ٠٠ جذبنى أخى الأصغر ، وقال فى شك :

ـ أحقا تريد ملابســـك ٠٠ ؟

قلت وقد رأيت نور الفجر ٠٠

ـ لا ٠٠

قال في ثورة :

ـ فماذا تريد اذن ٠٠ ؟

قلت هامسا :

ـ الكلمة التى كانت تريد هى أن تقولها ٠٠

قال فى دهشة :

ـ بعد كل الذى قالته ٠٠ !

قلت فى يقين :

ـ نعم ٠٠ كلمة واحدة كانت تتمنى أن يقولها لى ٠٠

قال :

ـ وتعرفها أنت ٠٠ !

قلت حزينا :

ـ نعم ٠٠ أعرفها ، فهى نفس الكلمة التى فى صدرى ٠٠

مجلة أكتوبر

١٩٩١/٧/٦

كــوب من اللبن الحليب

قال في ضيق :

ـ كل ..

نظرت الى وجهه الأسود وكرهته .. قالت برقة :

ـ أنت لم تأكل شيئا ..

كانت بيضاء مثل اللبن الحليب .. أمى كانت تحضر لى كل صباح كوزا كبيرا من اللبن الحليب ، تحلبه من ضرع الجاموسة وتأتى به الى مباشرة ، أشربه وأضحك .. أنطلق لكى ألحق بقطار الخامسة صباحا .. الجو بارد والعيون تحن الى النوم ..

عندما عدت قالوا :

ـ ضابط النقطة وضع كل الرجال فى الحبس ..

صرخت في خوف :

ـ وأبى ..

عندما عاد أبى ، قال انهم رجال الباشـــا ، وانه لن يقبـل

الظلم ·· ومع هذا أخذوا الجاموسة ووليدها الصغير ·· وكفت أمى عن احضار كوز اللبن ·· ولعنت الباشا فى سرى ··

قالت وعيناها تهدهدنى فى حنان :

ــ لا تغضب من الباشا ··

كان الباشا الأسود الوجه قد انصرف عن صالة الطعام ·· قلت فى تحد ، وأنا أنظر ناحية الشرفة التى يقف فيها :

ــ لا يجب أن يخاطبنى هكذا ·· أنا أدرس بالجامعة ، ولست خادما عنده ··

أومأت برأسها فى ود ·· ووضعت فى طبقى بعض الأرز وقطعة لحم ··

قلت فى نبرة متعالية :

ــ أدفع له ايجارا لحجرتى وثمنا لطعامى ، ولولا ما أدفعه ·· انتفض رأسها ·· اهتز خدها الأيسر ·· ورفعت وجهها نحوى فى رجاء ·· ابتلعت بقية ما كنت أود قوله ·· قالت انهم أخذوا أرضه وأمواله ، ولم يتركوا له الا هذا البيت الصغير ·· حتى السيارة الكبيرة القديمة لم تعد السينما تؤجرها ، ولا سبيل أمامنا الا ·· نهرتها بحماس ·· قلت : لم أقصد الاهانة ··

قالت : ــ قم وتودد اليه حتى يهدأ ··

قلت فى عصبية : ــ لن أفعل ·· لن تقبل الثورة أن تتعامل مع رجعى اقطاعى قتل الآلاف من الفلاحين ··

وتذكرت الجاموسة وكوز اللبن ·· ولم أغادر بيت الباشا رغم الكراهيــة المتبادلة ·· وظل هو يعيش على ما أدفعه ايجارا لحجرة فى داره ·· وظللت أنا قانعــا بتلك الحجرة ذات الايجار المعقول ·· وتخرجت ·· وكان من الظلم أن أظل عاطلا وأمى تنتظر

المدد .. أنا ابن الثورة .. قالوا اذهب الى الصحراء .. ضع هذه الأفرع الخضراء مغروزة في الرمل الأصفر ..

قلت : ـ لن تنمو هذه الأفرع المقطوعة ..

ضـــحكت وغرزت الفروع الخضراء .. وعندما جاء الضيف الكبير ، كانت ما تزال على اخضرارهـــا ونحن نكاد نســقط من الاعياء .. وهتفنا بحماس .. ولعنت الباشا الأسود في سرى ..

تمنيت أن أجده أمامى حتى أجبره على النظر .. كان المشهد يملأ القلب سعادة .. يحيا الوطن ..

ونامت الفروع الخضراء ميتة على الرمال .. وعندما شاهدتها في اليوم التالى ، كانت الرياح تدفعها بقسوة .. قلت للمسئول : اننى فلاح وأفهم في الزراعة رغم شهادتى الجامعية ..

نظر نحوى في برود .. وقال :

ـ ألا تأخذ راتبا كل شهر .. ؟

قلت لأم زوجتى ان راتبى وما أحصل عليه من الحوافز والأجر الاضافي كافيان .

ابتسمت زوجتى ، وقالت :

ـ لن أستعمل الحبوب بعد اليوم .. أمى حذرتنى ..

وعندما سلمت شهادة ميلاد ابنى الرابع الى رئيسى ، قال :

ـ هناك استدعاء لك .. يجب أن تسلم نفسك غدا ..

وهمس محمود الشربينى ، زميل الخندق المحفور حديثا :

ـ أنت لست من المحظوظين ..

قلت في تخابث : ـ ومن هم هؤلاء .. ؟

قال في مرارة : ـ الذين لا يدخلون هنا ..

قلت فى استنكار : ـ وهل هناك من لا يدخلون ولا ٠٠ ؟

قال فى حذر : ـ اسكت ٠٠ جدران الخندق لها آذان ٠٠

قص محمود الشربينى قصة الجماعة التى أكلت السمك وذهبوا بعدها الى الواحات ٠٠

وقال ٠٠ قلت : ـ أنت كذاب ٠٠ نحن لسنا فى عهد الباشا الأسود ٠٠

وعندما ذهبت الى الواحات ، بحثت عن الجماعة التى أكلت السمك ٠٠ كانوا قد خرجوا ٠٠ كانوا قد خرجوا ٠٠ وقال لى الزملاء همسا :

ـ انت مع من ٠٠

قلت فى ثقة : ـ مع الثورة ٠٠

ضحكوا وقالوا : ـ فلاح لا يفهم ما يدور حوله ٠٠

فى الأيام التالية ، عرفت انهم ألف جماعة وألف ثورة وألف رأى ٠٠ وانهم جميعا ينتظرون موت الباشا الأسود ٠٠ وعندما قلت لهم ان الباشا الأسود مات كمدا فى بيته ، وانني قابلت زوجته بعد ذلك ، سخروا منى ، وقالوا : ـ فلاح غبى ٠٠

وظللت فلاحا غبيا ، فى نظر جند الحراسة ، وفى نظر الرفاق والاخوة ، حتى عدت الى زوجتى بعد ثلاثة أعوام ٠٠ كان ابنى الأول يذاكر فى كتاب التاريخ ٠٠ حاولت مساعدته ، ولكنى فوجئت بأن الكثير مما أعرفه مذكور فى الكتاب ٠٠ ولما ذكرته نهرتنى زوجتى وقالت :

ـ كنت أعلم أنك ستظل فلاحا ٠٠ ان الشهادة التى معك لم تنفعك فى شىء ٠٠ ثم راحت تسب الفلاحين ، وتكرر ما سبق وسمعته عن كراهيتها للفلاحين وبيوت الفلاحين ٠٠ لهذا لم أغضب عندما دفعوا بى الى الخندق ثانية ٠٠ كانوا يعطوننا طعاما جيدا ٠٠

وكنا نشرب الشاى ، ونشاهد الأفلام ·· وعندما أمرونا بالانتشار ، لم أستطع الجرى ، أنا وأربعة من المجندين المتقدمين فى السن ·· لهذا لم نصب برصاص الأعداء ، وأكلنا الطعام الجاف ، وجذور النباتات ·· وحفرنا الآبار وشربنا ·· بل أقمنا لأنفسنا مكانا ، ورحنا نزرع بعض النباتات ·· وعندما استطاع عبد الجليل تدبير أمر العودة الى ديارنا ، بكينا حزنا على ما زرعناه ··

وانهال علينا القائد تأنيبا ، وردد مساعده فى غيظ :

ـ فلاحون ·· فلاحون ··

كنت أود أن أناقشه ·· أنا تعلمت فى الجامعة ، ودرست الفلسفة ، وأفهم الفرق بين أفلاطون والفارابى ، ولكن عبد الجليل لكزنى ·· وعندما خرجنا من مكتب القائد ، قال عبد الجليل :

ـ نحن باقون الى ما شاء الله ··

شعرت بالحنين الى ابنى طـارق والى زوجتى التى لا تحب الفلاحين ·· وتذكرت مشروع اصلاح الصحراء ، وقلت له : ـ متى يحين أوان الانصاف ·

قال فى حسم : ـ اصبر ··

وصبرت ·· حتى جاء اليوم الذى قالوا لنا فيه ·· عودوا الى حيث كنتم تعسكرون فى الزمن القديم ·· وتذكرت زرعى الذى زرعته ، وبئرى التى حفرتها ، ومدفعى الذى فقدته ·· رفعت فأسى وعبرت ·· وضعت مداسى تحت ابطى وجريت ·· لن أتراجع بعد اليوم ·· لن أهتم بباشا أسود أو أبيض ·· لن أهتم ·· وحصدت بسيف الغضب كل من حاول أن يقف أمامى ·· وأتيت زرعى وبئرى وحملت مدفعى ·· وسمعتهم يقولون فى سخرية مسمومة :

ـ هذه حرب الفلاحين ··

صرخت بقوة : ـ نعم ··

ورفعت (مداسى) ، فأشاروا اليه ، والباشا الأسود يضحك

من غفلتى ·· والباشا الأبيض يضحك على غفلتى ، وألوف الجماعات (فى سخرية) تقول :

ـ هذا سلاح الفلاحين ··

قلت : ـ نعم ··

ونظرت الى زملائى ·· كانت عيونهم تسأل :

ـ متى يأتى زمن الانصاف والأمل ··

الأهرام/١٩٨٩

عــروس البحــر

اتسعت عيناه دهشة ٠٠ لم يستطع الاقتراب ٠٠ بحلق غير مصدق ٠٠ ولكنها راحت تدور في شبه دائرة حول مركبه الصغيرة ٠٠ تقافزت عدة مرات وهي تقول : ـ حبيبي ٠٠

حاول أن يتخلص من شلل الدهشة ٠٠ كانت يده تقبض على مفتاح موتور المركب ٠٠ أوقفه ٠٠ هدأت المركب في استكانة ٠٠ غاصت هي وظلت مختفية ٠٠ تمالك نفسه وأخذ في اشعال البايب ٠٠ عندما دخل متحف اللوفر ، قادته قدماه الى لوحات عظماء الرسامين ٠٠ أطلت عليه لوحة الأميرة ٠٠ كان جمالها أخاذا ، في عينيها نداء له ٠٠ تخلص منهما بصعوبة ٠٠ مضى يشاهد بقية اللوحات ، ولكنه عاد الى لوحة الأميرة ، وترك نفسه تتأملها على مهل ٠٠ كان في داخله احساس بأنه رآها من قبل ٠٠ رأى الأميرة ٠٠ بل كان على يقين من أنه تعامل معها ، وان لم تكن من دمه بشكل أو بآخر ٠٠ عندما غادر (اللوفر) وذهب الى الجامعة ، ليلقى محاضرته الأخيرة ، كان قراره بالسفر الى رأس محمد قد اكتمل ، وسافر ٠٠

برز رأسها عند منتصف القارب ٠٠ كان في امكانه أن يضع

يده على رأسها ، ولكنه أحس اجلالا لها ، فجلس فى اتزان ‥ صاحت بصوت خافض : ـ حبيبى ‥

أطفأ البايب ، ووضع يده على رأسه ، اختفت مرة أخرى ‥ قال للطالب الذى سأله عن مصطلح (الانسلاخ الانسانى) ، انه يجب أن يبحث بنفسه عن المعنى ‥ هبط سلالم الجامعة مسرعا ‥ كان على موعد مع مدير مكتب السياحة الذى رتب له الرحلة ‥ قال الرجل : انها رحلة فردية ، فلا أحد يرغب فى الاشتراك فيها فى هذا الوقت من العـام ‥ تسلم منه الأوراق ، وغادر المكتب شارد الذهن ‥

أيقظته بصوتها المتكرر : ـ حبيبى ‥ حبيبى ‥
أدار محرك القارب منهيا حالة التبلد التى يعيشها ‥ زام المحرك ، وانطلق القارب صاعدا فوق الماء ، سمع ضحكا غليظا ‥ قرر أن يغادر المكان ‥ وعندما وصل الى الشاطىء ‥ كانت الحركة بجوار الفندق هادئة ، ولكنه لمح (شندى) وهو يعمل فى تنظيف القوارب ‥ رفع يده محييا شندى ، ولكنه لم يتلق الرد ‥ كان الرجل مشغولا بعمله ‥ أوقف القارب عند المرسى الخشبى ‥ قفز مبتعدا ، ومضى مسرعا نحو حجرته ‥ طالعه وجهه فى المرآة شاحبا ‥ تحسس الوجه وحاول أن يبتسم ‥ أخرج من حقيبته كتابه الجديد عن (المصـــدر الوضــعى للمنســوجات) ‥ عندما تصفحه ، قرر أن يستكمل أبحاثه فى هذا الموضوع ‥ ضحك ‥ ودخــل الحمام ‥ جلس فى حوض الاستحمام يتــأمل فقاعــات الصابون ‥ سمعها تقول :

ـ حبيبى ‥

تلفتبسرعة ، لم يجد أحدا ‥ ارتدى ملابسه ، وهبط الى صالة الطعام ‥

قال الخادم : ـ انهم يدعونك للانضمام اليهم ٠٠

سعد بالدعوة ، وراح يأكل بشراهة ، ويتحدث عن هواية صيد الأسماك ٠٠ وقال انه يحب مشاهدة أفلام رعاة البقر ، وانه يكره الزواج ٠٠ ويفضل القاء محاضراته فى جامعات مختلفة ، حتى يتعرف على زملاء جدد فى علمه ٠٠ عندما حان موعد الرقص ، أسرع طالبا الرقص مع الشقراء التى كانت تجلس قباله ٠٠ قالت له وهى تضحك بصوت عال :

ـ أنت رائع يا حبيبى ٠٠

دس رأسه فى الوسادة وقرر النوم ٠٠ عندما دخل أول شعاع من ضوء الفجر ، أسرع الى القارب ، أخذ معه آلة تصوير وسلة فاكهة ٠٠ لم تعد الدهشة تزعجه ٠٠ قرر أن يعمل وبسرعة ٠٠ أدار محرك القارب الذى انطلق مبتعدا عن الشاطىء فى خط مستقيم ٠٠ واصل سيره بنفس السرعة ٠٠ كان أزيز المحرك وصوت الماء المشقوق يزيده اصرارا ٠٠ مضت ساعة ونصف وهو يحملق فى الماء ٠٠ المحرك تنتابه هزات كأنه يتنفس ٠٠ سكت المحرك فجأة ٠٠ ارتاح القارب على الماء ولكنه ظل مندفعا ٠٠ ساد السكون مع زيادة زرقة الماء التى اقتربت من السواد ٠٠ كانت تبدو بعيدة ٠٠ تكاد تظهر من طرف الماء ٠٠ تلفت حوله وهو يعبث بمفاتيح المحرك الذى مات فجأة ٠٠ ظهرت بعيدة وهى تصرخ فى نشوة :

ـ حبيبى ٠٠

اقتربت منه ، ابتسمت ٠٠ كانت الأميرة تبتسم ٠٠ وعندما اقترب منها عرف من هى ٠٠ همس اليها محييا ٠٠ أحنت رأسها فى ود ، أحس بالنشوة تتملكه ٠٠ أراد أن يفسر لها سبب تخلفه عن موعده ٠٠ أشارت برأسها لكى يسكت ٠٠ كف عن الحركة ومد

يده بسلة الفاكهة ٠٠ ازدادت ابتسامتها ، ونظرت نحوه فى اشفاق ٠٠ خجل من نفسه وأعاد سلة الفاكهة الى موضعها ٠٠ دارت حوله ٠٠ قال لأبيه :

ـ والعلم والدراسة والبحث ٠٠

قال أبوه : ـ ألم يكفك هذا العلم ٠٠ ؟

وقالت أمه : وماذا بعد يا ولدى ٠٠ ؟

وسافر ، سافر فى عينيها ، الأميرة الجالسة على حافة الماء ٠٠ غطست فى الماء ، ثم ظهرت حاملة نباتا أخضر ، فاقع اللون ، جميل الرائحة ، قدمته له ، مد يده وتشمم النبات ٠٠ قالت زميلته ان الأجهزة الحاسبة الدقيقة لم تستطع الوصول الى نتيجة معقولة ٠٠ ضحك ساخرا ، ورمى الأوراق ، واحتفظ بالورقة الخضراء ٠٠ تأمل الورقة الخضراء ، سمعها تضحك ٠٠ دارت حول القارب عدة دورات ٠٠ أطلق صوته عاليا ويداه مرفوعتان : ـ أحبك ٠٠

زغردت فى نشوة ، أصبح دورانها حول القارب أسرع ٠٠ ردد فى سعادة :

ـ أحبك ٠٠ أحبك ٠٠

توقفت عن الدوران ٠٠ اقتربت منه ٠٠ وضعت رأسها على حافة القارب ٠٠ رددت هامسة :

ـ حبيبى ٠٠

بكى من التأثر ، وضع يده على رأسها ٠٠ سرت فى جسده ارتعاشة عنيفة ٠٠ أفاق بعدها وقد ملأه الاحساس بالسعادة الكاملة ، جسده يفور من النشوة ٠٠ أراد أن يلمسها ثانية ، ولكنها كانت قد اختفت ، سمع صوتها يردد : ـ حبيبى ٠٠ حبيبى ٠٠

ولكنه لم يرها بعد ذلك ··

فى المساء يدور بقاربه ساعات حتى منتصف الليل ··

وفى الصباح يطوف بقاربه ··

أمله كله فى أن يلمسها ثانية أو يسمع صوتها ··

١٩٨٩/٦/١

وفاتني القطـار

رأيت البدر المطل على قريتي ، قلت فى نشوة :

ـ ها قد عادت الحياة من جديد ..

ومضيت أشق الدرب القديم ، تخطيت كوبرى المصرف ، وبدأت أخطو نحو حوش عيسى ، حيث شجرة الجميز الكبيرة .. كانت الظلمة تسود أسفلها ورائحة ثمار الجميز تملأ الخياشيم .. صحت فى سعادة :

ـ لم تتغير الأحوال ..

اتسعت خطاى ، وتجاوزت شجرة الجميز ، وأصـبحت فى محاذاة حوش عيسى .. بحثت عن شجرات الليمون التى كانت تمتد لمسافة طويلة بمحاذاة (المروة) ولكن لم أجدها ، كانت الأرض سوداء .. نظرت الى السماء فلم أجد البدر ، قلت :

ـ الغمام يغطى البدر فلا يظهر ..

تقدمت نحو المصرف الكبير .. كانت ذاكرتى تعود فى وضوح كلما رأيت البدر المطل على قريتي ، ولكنى لاحظت أن البدر يغيب

لحظات ليظهر لحظات أخرى ٠٠ كانت قدماى تسيران فى تلقائية ، وكنت واثقا من أنى سوف أعثر على دارنا كما هى ٠٠ كانت حقيبتى الثقيلة تشكل بعض همى ، واجهاد السفر الطويل يجعل قلبى يدق بشدة ، حتى انى أسمع بوضوح دقاته ٠٠ لم يكن يعنينى الا الوصول الى دارنا ، هناك فى نهاية شـارع درب الناحية بجوار ســاقية الشامى ٠٠ ضحكت عندما تذكرت حكاية هذا الشامى ، لأنه لا شامى ولا يحزنون ، ولا يوجد رجل من حارتنا اسمه الشامى ، بل لا توجد ساقية على الاطلاق ، ومع هذا يسمى أهل القرية تلك المنطقة باسم ساقية الشامى ، وهى منطقة خربة ، كنا نلعب بها ونحن صغار ، وكانت مرتعا لحواديت الجن والعفاريت ٠٠ ولم يكن هناك من معترض على أن اسمها ساقية الشامى ، رغم عدم وجود ساقية ٠٠ وسبق أن سألت أمى ، فقالت وهل هناك سبب تعرفه لكونهم أطلقوا على الجاموسة هذا الاسم ٠٠ الأسماء يا ولدى ليس لها سبب ، انما هكذا تعود الناس ، فلا تتعب عقلك ٠٠

ويومها أخرجت لزملائى ، دائرة معارف كبيرة جدا ، دونتها فى عقلى وأخذت أفسر كل الأسماء التى يسألوننى عن معناها أو عن سبب تسميتها بهذا الاسم ، وكنت أحكى لهم مستعينا بالأرقام وبعض حقائق التاريخ قصة هذا الاسم ، حتى ظن زملائى أن الذى أحكيه لهم ، حقيقى ، وأن تلك الموسوعة قد ألفتها فعلا ، بل طلب البعض المساهمة فى طبعها ٠٠

ياه ٠٠ يا زمن (أبو الفتوح) ، زمن ضاع من أيدينا ٠٠ انفرطت أيامه كما تنفرط حبات العقد ، وتضيع فى التراب ٠٠ ملعون هذا الزمن ، الخراب الذى جعلنا نعيش الأيام ونشدها من أولها لآخرها حتى تنتهى ، وننام لكى نستعد لانهاء يوم جديد ، نلعن الحظ الذى رمانا لنعيش فى ذلك العصر القذر ٠٠

أطل البدر ثانية ، ورأيت أشباح الدور ، عالية تلك الدور ، لم تكن هكذا عندما سافرت آخر مرة ٠٠ وكنت أستطيع مصاحبة

البدر من أول محطة القطار حتى فراشى داخل دارنا ٠٠ لم يكن يغيب عنى لحظة واحدة ٠٠ وكنت أظن أن بدر قريتنا ، بدر وحيد ، لا مثيل له ٠٠ لهذا لم أبحث عنه عندما سافرت ٠٠ لم أحاول أن أنظر الى السماء ، خوفى من السقوط ، جذبنى الى الأرض ، حيث عشت طوال غربتى ، أحلم بالعودة ٠٠

وهأنا قد عدت ، ولكن لا أجد قريتنا ، تلك الدور العالية ، وتلك الحوارى الضيقة التى تكاد تنطبق عليك ، لا تشنبه دور قريتى ولا حوارى قريتى ٠٠

مضيت ، أترنح من ثقل الحقيبة ، وأنوء من ثقل الزمن ٠٠ خمسون عاما يا أبا التوح ٠٠ تحلم أن تعيش ، تحلم بالغد المرتقب ، بأن الغد أفضل ٠٠ ولكن يا خسارة ، يا ألف خسارة ، جاءك الغد ولم يكن أفضل ٠٠ هل هذا بحكم السن ، أم بحكم الغربة ٠٠

الخندق المحفور — المهجور ، لجندى مقهور ، لا يعطى الأمان ، انما يدفع بالانسان الى الهجرة ٠٠ وهناك فى القرية عاش فى جحر يأكل مثل الجرذان ، ويتبول مثل القطط ، ولا يسأل أبدا عن شىء ، لا يرى فى عيون الأغراب الا اللوم والشك والتوجس ، لا تقل ان هذا قدرى ، بل قل هذا فعلى ٠٠ هربت يا أبا الفتوح الى عوالم أخرى ، وتركت عالمك ينهشه الطير الجارح ٠٠ لم تفعل كما يفعل أهل السند ، وكما فعل الأقدمون ٠٠ انهم كانوا يكافحون ٠٠

لم أعد أعرف الطرقات ، أقدامى تضطرب ، وأنفاسى تتلاحق ، وروائح الدور مقبضة ٠٠ كدت أسقط ، تمالكت نفسى ٠٠ يا زمن المصائب انصرم ٠٠ حربك لم تكن الا نكدا ، لم تكن الا نذيرا لك ولأهلك ٠٠ انك مصلوب حتى يوم القيامة ٠٠ جندى أنا لا أملك الا الانتظار ، مثل بندقية معلقة ، انت معلق من رقبتك ، ها قد أرسلوك الى اليمن ٠٠ الله أكبر انشق القمر ، وظهرت الميـاه من جوف الأرض وتحرر الناس ، وصرت أنت عبدا ٠٠

جلست على أحد الأحجار ، وضعت حقيبتي بجواري ٠٠ كنت أرغب فى النوم ٠٠ فى الخامس من يونية ، حفرت ثلاثة خنادق ، ولم أنم فى احداها ٠٠ وفى عصر ذلك اليوم ، قالوا لنا تفرقوا ، كانوا يبحثون عن الضباط ، وكنت جنديا ٠٠ أطلقوا الرصاص فى الهواء ٠٠ قالوا اجر ٠٠ جريت ٠٠ جريت ٠٠ وهربت ٠٠ ولكنى لم تكن على « التتك » ٠٠ وعشنا أيام الخندق المحفور ، والمقهور ٠٠ قلت الرصاص لم ينطلق ٠٠ كانت بندقيتى فى يدى ٠٠ وأصبعى لم تكن على « التتك » ٠٠ وعشنا أيام الخندق المحفور ، والمقهور ٠٠ والقلب لم يعد يحتمل ٠٠ وعندما صرنا أشلاء ، ألقوا بنـــا فى العراء ٠٠ وكانت هجرتنا ٠٠

ماذا تفعل وأمك لا تريدك ٠٠ تتزوج من غيرك وتقول لك ٠٠ ماذا أفعل يا ولدى ٠٠ تركلك بقدمها حتى لا تدخل الى الدار ، تخشى الطلاق ٠٠ وتخشى زوجها ٠٠ وتخشى منك على نفسها ٠٠ وجريت حتى ماتت الشفقة من قلبك ٠٠ وقبضت ثمن العرق ، لم يكن دوما ذلك الذى نزف منك ٠٠ بل كان عمرك ٠٠

وأخذت الثمن ، أوراقا مالية ٠٠ أكلتها الفئران ٠٠ وعندما عدت وأنت تحلم بالأمان ، لم تجد لك عنوانا ٠٠ لأن دارك لم تعد تلك التى فى ذاكرتك ٠٠

وصحوت على لون الشمس الحمراء ، تشرق فى السماء ٠٠ وأفقت ٠٠ كانت الناس تمشى من حولى ٠٠ لم يسألنى أحد عن اسمى ٠٠ ولم يكتشف أحد رسمى ٠٠ تركونى ومضوا ٠٠ حتى ذلك الرجل الذى تذكرته ، لم يعرفنى ٠٠

قلت : ــ لم تعد الأيام كما كانت ٠٠

قال أحدهم ، وهو يشير الى المحطة :

ــ أخشى أن يفوتك القطار ٠٠

م ٠ المنتدى
١٩٨٧

انســل العمــر

أهدتنى اليوم ابنتىورقا وحافظة نقود ، وأهدتنى قلما ٠٠ وجاء الليــل ، ونامت ابنتى وأيضا نامت زوجتى ، وخلــوت الى نفسى ٠٠ تذكرت الشموع الخمسة التى أوقدوها فى التورتة مع حماس ابنى الصغير الذى كان متلهفا لاطفاء الشمع ، حتى اذا ما حان وقت اطفاء الشموع ذهب ليلعب فى جهاز التسجيل ٠٠ وأطفات الشمع وأنا أشعر بضيق شديد فى صدرى ، واحساس بالهزيمة يغمرنى ٠٠ منذ لحظات كانت مشكلة ابنتى الثانية تحيطنى منذ الصباح ٠٠ عندما صحوت قالوا لى كل عام وانت طيب، ابتسمت، أعياد الميلاد جميلة حتى سن العشرين ، ثم يبدأ العد التنازلى للســعادة ٠٠ ولا يحد من هذا الحزن المصاحب للاحتفال بعيد الميلاد الا وجود الأصدقاء الذين يتحمسون لاقامة الحفل ٠٠ انهــا مجرد فرصـــة للفرفشة ، للأكل ، لتغيير روتينية الحياة ٠٠ ثم يقدمون لك هدية ، جمعوا ثمنها بصعوبة ٠٠ ولحسن حظى أننى حظيت دوما بأصدقاء أوفياء لأعياد ميلادى ٠٠ ففى الجامعة كان يقيمون لى الاحتفال بمدرج الكليــة ، ويضربون عن تلقى المحاضرات ، وهــات يا آكل جاتوه

وملبس ، حتى اذا ما حضر الأستاذ وضعوا فى يديه طبقا من الحلوى ، وتضحك البنات وهن يرددن كل سنة وأنت طيب يا دكتور .. عيد ميلاد سلامة ، وكانوا يطلقون على طريقتى فى الحياة خلال الجامعة (السلاميزم) نسبة الى اسمى ، ويضحك الأستاذ ولا يملك الا تحية وفاء الأصدقاء ، وهكذا حتى انتهت الجامعة ، وشاء الله أن أعمل فى حقل رعاية الشباب ، حيث وجدت أوفى الأصدقاء الذين لم يكفوا عن الاحتفال بعيد ميلادى حتى بعد أن تركتهم واشتغلت بالصحافة .. كان الاحتفال بعيد ميلادى مناسبة خاصة جدا ، نجتمع ، نذهب الى أحد الأماكن العامة ونحتفل ، ويكون أحدهم قد رتب لهذا الحفل .. وتوالت أعياد ميلادى ، وأنا لا أشعر ، انسل العمر من يدى دون أن أشعر .. مر وأنا نائم ، حتى تلك الاحتفالات بأعياد ميلادى لم تستطع ايقاظى من نومى ..

وكنت وأنا صغير ، أجلس مساء يوم عيد ميلادى وأسجل على الورق كل الأعمال التى قمت بها طوال عامى الماضى ، وأحسب الأعمال الحسنة والأعمال غير الحسنة ، ودائما كنت أكتشف أن الأعمال غير الحسنة كثيرة ، وأعاهد نفسى أن أقلع عن فعلها فى عامى المقبل ، ولكنى أكتشف بعد ذلك أننى لم أقلع عن فعل الأعمال غير الحسنة ، وزادت نسبتها ، وهكذا توقفت وأسلمت أمرى لله .. لم أعد أحسب كل عام ، بل أصبحت أحاسب نفسى كل يوم ، وزاد الحساب حتى أصبح كل ساعة ، ثم كل دقيقة .. وهكذا تحولت حياتى الى فرع من بنك لا يهمه الا حساب الخسائر والأرباح .. تحولت الى آلة نكد ، تصفر كل لحظة لتنبهنى الى ما أفعل ، ورغم كل تلك الصفارات الا أننى لم أقلع .. وازداد حزنى وقلت ساعات مرحى ، ورأيت صورة وجهى فى المرآة ، كان وجهى غير هذا الوجه الذى طالعنى فى المرآة ، لم أعرف وجهى لأول وهلة .. تراجعت فزعا ، ظننت أن لصا تسلل الى الحمام

ووقف خلفى ، ولما تيقنت أن الصورة المطروحة على المرآة صورة وجهى ، تعجبت ، هل هذا أنا ، وجه عابس وعينان زائغتان ، تهتزان فى عنف وضعف ، وفم مقبوض مزموم ، وجبهة مكدرة ·· صحت : لماذا كل هذا ·· ماذا حدث فى الدنيا ، أنعم الله عليك بنعم لا تحصى ، وأعطاك ما تحلم به ، ومنع عنك الشر ، وامتحنك ببعض الخوف والمرض وقلة المال ، ولكنك صبرت ، ورفعت يديك الى السماء ودعوت الله بكل صدق ، لماذا هذا القهر الذى يغطى أرنبة أنفك ، لماذا هذا الهم ·· أمسكت بالمرآة وحطمتها ، كانت غير صادقة ، نعم المرآة غير صادقة ، انها تتآمر ضدى ·· قرأت بحثا فى احدى المجلات يقول ان المرايا تحقد على الناس بقدر ما يحقد الناس عليها ، وأنا فعلا أحقد على مرآتى هذه ، انها غير وفية ، اشتريتها من السوق في احدى نوبات الكرم التى اجتاحتنى ·· دفعت مبلغا كبيرا ثمنا لها ، أتيت بها فخورا ، نزعت المرآة القديمة فى عنف ، ووضعتها بدلا منها ، ثم نظرت اليها فى اعتزاز ، وقلت هكذا صار الحمام جميلا ، ولكنى حقدت عليها بعد ذلك ·· قالت لى ابنتى ان المرآة تغضب من بخار الماء المتصاعد اليها من حوض الاستحمام ·· لم أستخدم الماء الساخن فى حمامى ، كنت اذا ما انتهيت من الحمام مسحت عليها بقميصى ، كانت تبرق وهى تهتز من السعادة ·· فى يوم ، بعد أن مسحت عليها بقميصى الأبيض ، رأيت عينى اليمنى حمراء ، اقتربت من المرآة ونظرت الى عينى ، ازداد الاحمرار ، وعندما مشيت فى الشارع شعرت بالألم الحاد فى عينى ·· قال الدكتور انها عدوى مرضية ، قلت فى نفسى هى المرآة اذن ، ولم أستحم بالماء البارد ، وتركت بخار الماء يتصاعد الى أعلى حتى يغطيها ، ولم أعد أمسح عليها بقميصى ·· وتذكرت ان زوجتى تشكو من ألم حاد فى أصابع يديها ، وأخبرتنى ابنتى أن الغسالة امتنعت عن العمل تماما ·· قلت للمرآة : اذهبى عنى ، ولم أعد أهتم بها ··

انتصف الليـــل وازداد الصـــمت ، وقلت لنفسى ان الأشياء لا تتكلم ، وأن هذا الوهم الذى صـــاحبك طوال عمرك يجب أن يختفى ، وأن الأحلام التى تغرق فى لجتها تصيبك بالمرض ، وقلت لنفسى أشياء لم أعد أذكرها ، ولكنى نظرت الى الحائط الأصفر ، كان يلمع فى ضوء المصباح القوى ، كان لونه يميل الى الاصفرار ٠٠ بعد قليل خرج ولد من الحائط ٠٠ صدقونى هذا ما حدث ، صحت فيه محذرا ، قلت لن يصدقنى أحد ، قال الولد هم لم يصدقوك أبدا ٠٠ ضحكت وتركت الولد ٠٠ كانت أمى لا تصدقنى ٠٠ كنت اذا ما عدت اليها من الخارج رويت لها أحداثا هائلة ٠٠ أبدأ بأشياء واقعية ، ثم أتصاعد بالأحداث حتى اذا ما انتهيت الى ما لا يصدقه العقل صاحت غاضبة ، ونادت جدتى ٠٠ كانت تقول اذهبوا به الى الطبيب ، ابنى سوف يصبح كذابا ٠٠ قلت للولد ان زوجتى نامت فى العاشرة وتركتنى وحيدا ، وأيضا ابنتى ، وانصرف عنى الأصدقاء هذا العام ، ولم أجد أمامى الا هذا الحائط ٠٠ قال الولد : أنت لم تعد وحدك ، أنا معك الآن ٠٠ ضـــحكت ٠٠ ماذا ستقول زوجتى فى الصباح عندما تجد الولد جالســـا معى ٠٠ قمت الى الثلاجة ، وأحضرت بعض الطعام ، بقايا الاحتفال ٠٠ أكل الولد ٠٠ قلت فى نفسى هذه شهادة مادية تجعلهم يقتنعون تماما بصـــدق روايتى ٠٠ هذا هو الولد يأكل ، ولكنى سمعت صراخا حادا ٠٠ من أين ٠٠ سمعت الصراخ فعلا ٠٠ وقفت وأخذت أبحث فى كل مكان ، لا شىء ٠٠ جلست وأخذت أبحث داخلى ، نعم ٠٠ جاء الصراخ من داخلى ، أسرعت الى نفسى وسألتها ماذا بك يا نفس ٠٠ لم أسمع جوابا ٠٠ هززت نفسى عدة مرات وكررت السؤال ولكن لا اجابة ، انها نفس صموت ٠٠ قلت ، غاب القمر يا ابن عمى ، قال ابن عمى : يا رجل قل الحمد لله ٠٠ قلت ، قال : أصبحنا شيوخا ، وتساقطت الأسنان ٠٠ قالت أختى : أخى لا يزال قويا ، أشارت نحوى ٠٠ نظرت الى بقايا التورتة والشمعة المحترقة ، وضعوا شمعة واحدة احتفالا بعيد ميلادى ٠٠ كان ابنى متلهفا على اطفاء الشمعة ٠٠

أصرت زوجتى على أن نسمع أولا أغنية عيد الميلاد التى اشتريتها
من العتبة ٠٠ الشريط بثلاثة جنيهات ، عاكسها (الكاسيت) ،
شعر طفلى بالملل ونام ٠٠ نظرت الى الشمعة الوحيدة المحترقة وقلت :
فى عقلى تدور الدوائر وتقوم المعارك ولا تكف ، رأيت أصدقائى فى
اليوم السابق ينظرون نحوى فى حزن ٠٠ قالوا فى بلادة : كل
سنة وأنت طيب ٠٠ ابتسموا فى حزن ، وأحضرت الأوراق والأقلام
وكتبت : مضى الآن على الاحتفال بعيد ميلادى سنوات ، ظننتها
أياما ٠٠ قلت كيف يكون الصراخ نابعا من داخلى وأسمعه بأذنى ،
ثم كيف تكتمه نفسى ولا تعترف به ٠٠ لقد سمعته حقا ٠٠ أنا أعلم
أن نفسى تصرخ بقوة ، تجأر من الشكوى ، ولكن الشكوى لا تفيد ،
فعلمت نفسى ألا تقول ٠٠ اسأل كل الناس ، تجد أن كل الناس
يشكون ، كلنا نشكو لكلنا ، ولا أحد يسمع ٠٠ أغلقت الكتاب ،
أقصد الكراسة ، نظرت الى خطى ، كانت الكلمات تتلوى فى ألم ،
تشابكت الكلمات وتعاركت ، صارت كتلا من الحبر الأسود ،
ظهرت كلمتان فى أول السطر ، راحت الأولى تتقافز فى مرح حتى
وصلت الى وسط الصفحة ، نادت على القلم الذى اندفع نحوها ثم
تسللت داخله ، اختفت ، اهتزت الكلمة الثانية ، انتفضت فى يقظة
مفاجئة ، جرت حتى تلحق بالأولى ، ولكن القلم ارتفع ، صرخت
وراحت تتخبط بين السطور ، اصطدمت بكتل الحبر التى صارت
فى لون الدم ، تأوهت الكلمة ، كان الدم بحورا فى لبنان
وأفغانستان ، وتلالا من عظم الأطفال فى السودان ، وأخبار الجو
الفاسد ، والحاقد ، وأخبار الطوفان ، تراجعت الكلمة ، وقالت :
لن يهزمنى النسيان ، أبدا لن يهزمنى النسيان ٠٠ غول الاعلام ،
وأقزام الحانات ، وأصحاب الثعلب المكار ، مهما بذلوا من جهد ،
سيظل القلم الأبيض يكتب ٠٠ صاحت ابنتى : حان ميعاد الدواء ،
استسلمت لها ، رأيت السقف لم يعد أبيض اللون ٠٠ قال سعيد :
هذا هو العيب ، كل شىء له عيب يا سعيد ، لماذا لا تنظر أنت الى
عيبك ، بل عيوبك ٠٠ وأيضا انظر الى جيوبك ٠٠ فى العام الماضى

كتبت أن جيوب الانسان هي رمز الانسان ، ولكنى رأيت سيدات بلا جيوب ، ولكنهن أسياد ، قلت لسعيد ، يجب أن يحرص الانسان علي الاحتفال بعيد ميلاده ، لأنه ذكرى طيبة ‥ قال : سوف نحتفل بعيد ميلادك هذا العام ، ولم يحضر سعيد ، غاب ، قال ‥ ان الدنيا مشاغل ‥ قلت للمصباح الذى ظل ونيسى طوال الليل ‥ لك الشكر أيها المصباح ‥ لم أكن أتوقع جوابا من المصباح ، ولكنى سمعته يقول : عفوا أيها الرجل الوحيد ، فزعت ونظرت الى الحوائط الأربعة ، وجدتها تضحك ، وكان الولد لا يزال جالسا يأكل ، ولا يزال أثر خروجه من الحائط واضحا ‥ قلت فى الصباح سيصدقوننى ، فهذا هو الولد الذى خرج من الحائط ، وها هو طعامه ، ثم ، وهذا هو الأهم ، مكان خروجه من الحائط ‥ ابتسمت فى سعادة ‥ انحنيت على بقايا التورتة وتلمستها ، ثم الى بقايا الشمعة وأعدت غرسها فى ركن من التورتة ، وأحضرت ثقابا وأشعلتها ، وأدرت جهاز التسجيل ، سنة حلوة يا جميل ، ضحكت وضحك الولد ، سنة حلوة يا جميل ، وقفت أرقص من الطرب ، ووقف الولد ورقص معى ‥ قال المصباح : يبدو أنك لا تصدق الأغنية ، قلت : انها تقولها لكل انسان يدفع ثلاثة جنيهات ، قال : ومن أدراك ‥ فربما هى من أجلك فقط ، ألست جميلا ، قلت بلا تردد : نعم ‥

قال المصباح : فهذا الكلام لك ، قلت وأنا أنظر الى بقايا المرآة المحطمة : نعم أنا جميل ‥ صدقونى أنا جميل ‥ ضحكت الحوائط الأربعة ، وتوقف جهاز التسجيل ‥ صحت فى انفعال : لماذا توقفت ‥ كرر الأغنية ، ولكن جهاز التسجيل لم يفعل وظل صامتا ، أمسكت به فى عنف وقذفت به الحائط الأصفر ، دوى انفجار شديد ‥ جرت زوجتى نحوى ، وقالت :

ـ يجب أن تنام فورا ‥ لقد انتهى الحفل ‥

م ٠ الحياة / فبراير ١٩٩٠

لك حبى وفؤادى

الله أكبر ..

كانت سجدتى الثانية فى الركعة الأولى . ركب صغيري عمرو على ظهرى كما اعتاد أن يفعل ذلك كلما سجدت .. الأرض بها بقع حمراء ثم صفراء ، حاولت أن أتنفس ، لا هواء فى فمى ، اللون الأسود يطغى ، أشعر بحمل ابنى الصغير ، طنين هائل فى أذنى ، حاولت الاعتدال ، أملى أن يتركنى ابنى ويرحل عن ظهرى ، هذا هو الموت ، .. جاءت سيارة الاسعاف ، الطبيب يقرر بعض الأدوية وينصرف ، زوجتى تدور حولى فى ارتباك تسرع جارتى باحضار الدواء سمعت بكاء ابنى تنبهت الى أن عقلى لا يزال يعمل فى هدوء ، أدرك كل شىء من حولى ، قالت زوجتى وهى تنظر لجارتها السمراء ، انه نفس الدواء الذى أخذه فى الصباح ، هدأت نفسى قليلا ، تمالكت وقلت لزوجتى وأنا أغالب ألما محضا أسفل الصدر : أموت !

أفرغت مع الكلمـــة ما فى بطنى من طعـــام ، قفز الى ذهنى المتيقظ أنها آلام بالمعدة ، سرعان ما تذهب مع القىء الذى استمر ، سيارة اسعاف خاصـــــة بمستشفى استثمارى استدعتها زوجتى

المرتبكة والتى تعمل وفقا لمشورة جارتى انتابنى الاحساس بالنهاية ، دهشت لصفاء ذهنى الذى يعمل بطريقة منتظمة وسليمة ، أسرعت هابطا السلالم رغم اعتراض رجال الاسعاف ذوى الأجساد الضخمة ، كل هذه الدعاية عن الاسعاف الذى يصلك فى دقيقة وصور الأجهزة الطبية الحديثة تبرق شاشـــة التليفزيون ثم لا تجد الا نقالة خشـــبية من بقايا الحرب يحملها رجلان شبعا ثوا من أكلة فول بالبصل ، اندلقت أمامهما على السلم جريا ، أركبانى السيارة القديمة التى تحمل علامات الاسعاف وعليهـــا اسم المستشفى الاستثمارى الشهير ، حشرونا أنا وزوجتى وولدى الصغير ، وانطلقت السيارة وابتسمت لزوجتى ولم تبادلنى هى الابتسام ، توقفت السيارة ، دفعوا بنا الى حجرة صغيرة بها طبيب شاب ، دار حولى وهو لا يدرى ماذا يفعل وعندما أرقدنى على فراش الكشف اندفع الألم الى منتصف الصدر ، ولكن عقلى يعمل ولسانى أيضا ، شرحت حالتى للطبيب الشاب ، أخذت أهون عليه الأمر ، قام بعمل رسم للقلب جربت من قبل كل طقوسه ، أعطانى حقنة مسكنة ، قال فى توتر :

ـ لا يوجد لدينا مكان شاغر فى غرفة الانعاش ٠

سألته زوجتى عن مرضى وقال : لا أعرف ٠٠ يجب نقله الى الى المستشفى المجاور ربما وجدوا له مكانا فى غرفة الانعـــاش ثم أعطاها ورقة الحساب ، دفعت كل راتبى الذى قبضته من الصراف أمس ، دخلنـــا المستشفى المجاور ، انه الأحدث والأشـــهر والأكثر تجهيزا ، وقال الطبيب فى تجهم : ـ ادفعوا أولا ثلاثة آلاف ٠

اليوم يوم جمعة ، كانت رغبتى أن آخذ أولادى الى النادى ، تذكرت أخيرا أنه يجب الاهتمام بالأولاد ، يجب ترك العمل ولو يوما واحدا لن تضيع الدنيا بسبب أجازة مع الأولاد ، ندفع الاشتراكات ولا نذهب ، يحسدنا الناس لأن أسماءنا تلمع على الشاشة وأخبارنا تناوشهم كل يوم فى الصحف والمجلات ، ولكنهم لا يعلمون كم ندفع لكى تلمع الأسماء وقد جاء يوم الحساب ، الألم الحاد أوصلنى الى

حالة عـدم الاحسـ س بالألم ، بكت زوجتى وتوسلت اليه لكى
يوافق على ادخالى ا فى أولا ، سوف تأتى اليه بالمال ، المبلغ
المطلوب يستحيل فى لحظة وخاصة فى وقت صلاة الجمعة ،
رفض الطبيب تأج م رغم علمه بشهرتى ، رأيت دموع زوجتى ،
كنت على يقين م فلمـاذا لا أموت فى بيتى وبين أولادى
جميعا ، تظاهرت والصحة ، قلت ضاحكا :

ـ هيا الى

طالبنا الط جنيها نظير الكشف الذى لم يتم
ورفض خروجنا فى حالة مزاجية معتدلة ، أمرت
زوجتى أن تبحث ، نســدد المبـلغ ، أمرها
أن تصحبنى نحو ا ب بعنف ٠٠ لا خروج من
باب المستشفى ، ضـ اجى أكثر ، وقلت لـكى
ندخل يجب أن ندفع ه كله فى عام وعندما نريد
الخروج ترفض ؟ تدافع ترح أن أكتب اقرارا
بمسؤليتى الكاملة عن خرو س ٠ كان الأمر مضحكا
ومبكيا نظرت الى ولدى الصـغير مشفقا عليه من الأيام القادمة ،
السلام عليك يا انسان ٠٠ السلام عليك يا آدم يا نهر النيل ،
يا ولدى لك الله ٠٠ خرجنا رغما عنه ، تظاهرت بالقوة وصـعدت
سلالم البيت ، رقدت مستسلما على سريرى بجوارى كتبى ، قلت
لمسودات أعمالى التى لم تطبع : وداعا ٠ اندفع ابن جارى نحوى فى
ثورة : ـ ماذا تفعل هنا يا عماه ؟!

كان معنا فى المستشفى الاستثمارى الأول ، هو طبيب حديث
التخرج ، حديث فقد الأب الذى مات منذ شهر واحد بعد عمليـة
جراحية فى قلبه ، نظرت اليه متأثرا ، كنت أحب والده ، تزوجنا
فى عام واحد ، وسكنا فى منزل واحد ، وفى طابق واحد ، ولنا
اسم مشترك ٠٠ مات فتحى بعد نجاح العملية صورته لا تفارقنى ،

ابتسامته المشرقة دوما تطاردنى ، كان يشكو من ألم فى قلبه ، نصحه الطبيب وهو أيضا طبيبى فى نفس الوقت أن يستغل وجود فريق من الأطباء الفرنسيين فى مصر ويدخل غرفة العمليات ، تردد ثم وافق وعندما كان ذاهبا الى المستشفى قابلنى على السلم وقال ضاحكا : غدا ألقاك ٠٠ وذهب ولم يعد ٠٠ يردد ابنه الطبيب فى اصرار :

ــ يجب نقلك الى القصر العينى ٠٠ حالتك خطيرة ٠

أعلم أن حالتى خطيرة ، رأيتها عندما كبرت الله وسجدت ورأيت اللون الأحمر والأصفر والأسود وسمعت الطنين فى أذنى ، أعلم يا ابن الغالى ، ولكن ماذا يفيد العلم ، ٠٠ قالت زوجتى متذكرة اسم المستشفى الذى يعمل به الطبيب الذى يشرف على علاجى منذ زمن ٠

ــ هل يصلح مستشفى ٠٠ ؟

واستدعينا الاسعاف مرة أخرى ، فى كل مرة يساوموننا على الأجرة وندفع ، فى هذه المرة حشرونى وسط أسرتى جميعا فقد جاءت البنات كما جاء معنا الطبيب ابن الجار ، فى المستشفى الثالثة وافق الطبيب اكراما لزميله ابن جارنا على ادخالى غرفة الكشف بعد أن علم أننا لا نملك مالا ، ولا خطابا من جهة العمل ، حاول هو أيضا كما حاول الأطباء الشبان من قبله ، كان واضحا أنه لا يعرف ماذا يفعل ، اليوم يوم الجمعة ، والأطباء الكبار يستريحون ، والمرضى يجب أن يعرفوا هذا ، فلا أحد يسمح للمرض أن يهاجمه يوم الجمعة ، الأندية ومراكب الفسحة وحدائق القناطر وأيضا حدائق الميادين تعمل يوم الجمعة ، أما البنوك والمصالح والمتاحف والأطباء فلا يعملون ، ٠٠ كل واحد وحظه ، فلا داعى للاعتراض ، رقدت على سرير جاف وسط عشرات المرضى ، انهم أيضا يستريحون من الأطباء يوم الجمعة لهذا فهم يلعبون ويتسلون بمشاهدة

مسرحيات الفيديو والطعـام مبعثر فى كل مكان ، لا أدرى لمـاذا ألاحظ كل شىء ، لماذا لا يتوقف عقلى عن العمل وأستريح ، أعطونى حقنا مسكنة بدأت أعراض البرد تهاجمني ، الفراش غير مريح ، وبلاط الأرض يشع هواء مثلجا ، تقف أسرتى خارج (العنبر) فى انتظار (جودو) أو الطبيب الأستاذ ، انه مجرد أمل أن يحضر حتى يعلموا شيئا عن مرضى ، جاء بعض الأقارب ، وراحوا يتحدثون عن نتائج (دورى كرة القدم) .

رأيت السحب السوداء تغطى المكان ، تذكرت أننى لم أصل الصبح ، شرعت فى الصلاة ، .. الله أكبر ، الله موجود ، ادعونى أستجب لكم .. سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله له الأسماء الحسنى ، رأيت كلمة (المنـان) .. أخـذت أردد يا منان .. يا منان .. يا منان ، الليل طويل والألم طويل ، وقطار أسود طويل .. فى السادسة يلفظنى باب الداء ، برد الصباح يلسعنى ذاهب أنا الى المدرسة .. أتعلم .. اقرأ .. الفجر .. العصر .. كتب فوقها كتب ، والحلم لا يتحقق ، والارادة كموج البحر ، هادرة أحيانا تحطم صخور اليأس ، ومستسلمة مستكنة أحيانا أخرى لقطعة خشب قديمة تحول دون جريانهـا .. يا الله ، يا فرد يا صـمد ، يا معبود .. يا منان جاء الطبيب الأستاذ ، وجاء زملائى جميعا ، درت فى متاهـات الأجهزة الطبية الحديثة ، لم يعـد عقلى يعمل بانتظام ، لم أعد أعرف الليل من النهار ، أدخلونى أنابيب زجاجية حسبتها نعشى ، شعرت بالخوف ، لمحت ابنى الصغير يكافح لكى يدفع فراشى الى الأنبوبة ، يدفعونه بعيدا ولكنه يعاند ويصمم على الاشتراك معهم ، رحت أراقب محاولات ابنى الصغير الذى لم يكن يتجاوز الرابعة من عمره ، وكلما أدخلونى ظلام الأمبوب الطبى غاب عن عينى ، أتلهف لرؤيته عندما يخرجون رأسى ــ الظلام ، يصرخ المختص فى غيظ لأننى لا أستمع الى تعليماته ، عندما يضاء النور الأحمر يجب ألا أتنفس ، فاذا أضىء النور الأخضر كانت لى حرية التنفس ، وهكذا .. هو يصرخ وأنا لا أستطيع رفع عينى عن

ولدى الصغير كلما سنحت لى الفرصة ، صدرى ضائق ولا أدرى هل أنا أتنفس أم لا ؟ الأخصائى يحسبنى أعصى له أمرا ٠٠ شعرت بالتعب واستسلمت للظلام ، ٠٠ وجدتنى راقدا على فراش أشد قسوة وأغلظ سمكا ، وأجهزة معلقة بكل جسدى ، سمعت أصوات جيرانى فى حجرة الانعاش ، أحدهم يشكو لأنهم لا يريدون تقديم كوبا من الشاى المظبوط حتى (يعدل مزاجه) ٠٠ عقلى يصفو من جديد ويخفف حدة الاحساس بالألم ٠ استمعت الى أوامر الطبيب الذى كان يحاول انقاذ حياة (مريض الشـــاى) ـ تابعت بأذنى أوامره الصارمة لجهازه المساعد من أطباء وممرضـــات ، فهمت أن الشاب تعرض لأزمة قلبية حادة ، ٠٠ أخيرا نجح الطبيب فى انقاذه ، رأيت الطبيب وهو قادم نحوى أزاح الستار الذى يفصلنى عن جارى وابتسم ، شعرت بحب عنيف تجاهه ، وودت أن أصافحه اكتشفت أن يدى مغلولة بأسلاك وأنابيب ، ابتسم الطبيب مرة أخرى ومضى كان جارى الآخر طبيبا ، لا يكف عن طلب دواء ويذكر اسمه وعندما ترفض الممرضة يصرخ : انه يفهم أفضل منها فهو طبيب متخصص ، ثم يذكرها بادارته لأحد المستشفيات وكانت هى موظفة عنده ، ويتبادلان الذكريات وأتسلى أنا ، أشعر بالألم يأتينى مثل الموج ، موجة عالية وأخرى سهلة ميسورة وأنا بين ذلك أتارجح ، يصحو مريض الشاى ٠٠ يبدو أكثر مرحا ، تحلقت حوله ممرضات غرفة الانعاش ٠٠ هكذا تخيلته لأننى لا أراه فالغرفة مقسمة بواســطة ستائر تحجب كل مريض عن الباقين ، ولكن الأصوات لا تحجبها الستائر ، لهذا أشاع هزر هذا الشاب جوا من المرح أزاح عن كاهلى الأوامر الساخطة للطبيب المريض ، ٠٠ الله أكبر سجدت السجدة الأخيرة فى صلاة الفجر ، هكذا تصورت أن الفجر قد أذن ، شعرت بالراحة ، الصفاء يعود الى عقلى وأفكارى تعلو بى نحو آفاق لم أعرفهــا من قبل تهــاوت أحــلام الشهرة والاسم المكتوب بالبنط العريض ، بل ابتسمت ساخرا عندما تذكرت معارك الزملاء ، ٠٠ راحت (الدنيا) تجف وتتساقط من حولى ، وشرعت فى الابحار

نحو عالم جديد ، لم يكن جديدا ، كان شبه مألوف لدى ، الله أكبر ٠٠ رحت أصلى ، ترفع يديك وتكبر وتقرأ الفاتحة وما تيسر لك من القرآن ٠٠ قليل ما أحفظه من القرآن ، فاتنى الكثير لأننى لم أحفظ القرآن ، هذه هى الركعة الثانية ٠٠ أرفع يدى بالدعاء ٠٠ يا منان ٠٠ الضغط لا يزال مرتفعا ، أضيفوا محلولا آخر ، انظر الى وجهه ٠٠ صديقى أستاذ القلب البشوش يناوشنى كلما قرأ لى رأيا أو كتابا ، يعاملنى أحيانا بغلظة ، شكت زوجتى من سوء معاملته لأهلى ، أوامره ألا يزورنى أحد ٠٠ أمر بنقلى الى القصر العينى ، حملنى فى سيارة اسعاف الى هناك كان فراشى أو ما يشبه الفراش يحمله المرضون ويسرعون به يصعدون السلالم ويهبطون ، زحام هائل زوار وأهال ملهوفة ، ومرضى ذوو وجوه صفراء ، المرض يفرش داءه الأسود ، أنا راقد أكاد أطير فوق الرءوس ، الجدران عالية ولونها باهت ، وأسراب الذباب تطن من حولى ، السقف كان أبيض اللون ، ولكنه الآن فى لون الهباب ، يخترق المرضون الذين يحملوننى زحام البشر فى ممرات القصر العينى ، يجرى خلفنا (موظف الأمن) هكذا وصف نفسه ولكنه سبق له العمل ممرضا بالقصر العينى ، لهذا وصف الطريق جيدا الى حيث يجب أن تكون فى يده (حقنة) ، فى لحظة يسألنى عن مدى الألم فى صدرى ، ٠٠ يردد أن لديه أوامر مشددة بغرز الحقنة سريعا عند أول بادرة لارتفاع درجة الألم ، لا أعلم عن مرضى شيئا ، بماذا أنا مريض ، ولماذا كل هذا الاهتمام ٠٠ لماذا منعوا عنى زيارة الأهل والأصدقاء ، أخبرتنى ابنتى أن كل أصدقائى لا يريدون مفارقة ردهة المستشفى وأن زملائى بالعمل يتكاثرون ، بل ان أصدقائى ومن يعملون فى أعمالى الفنية يتوافدون الى المستشفى الذى ضاق بهم لهذا علقوا لافتة كبيرة بها أمر عدم زيارتى خاصة ٠٠ كل هذا يعنى خطورة مرضى ، ولكنى لا أشعر بهذه الخطورة ، بل أكاد أجزم بأن الأمر سوف يكون مضحكا للغاية لكل هؤلاء عندما أخرج اليهم وأنا أبتسم لهم ساخرا ٠٠ قال فى حزم :

ـ لا تتحرك ٠٠

غرز فى عروقى مجموعة أسلاك ، قال انه أعطانى كمية كافية من المخدر ، حذرونى من الحركة ، عرفت أن هذا هو الجهاز الوحيد فى مصر ٠٠ ربما يفسر هذا سر الزحام الرهيب خارج تلك الغرفة الخشبية التى لا تصلح الا لشرطى مرور فى مفترق طرق لاحدى القرى الريفية ، مجرد كشك خشبى به أجهزة علمية دقيقة ، يبدو أن حالتى نادرة ، راح الطبيب يستدعى الكثير من زملائه وزميلاته ، وكل منهم يحرك مقود الجهاز الذى يعبث أمبوبة داخل صـدرى الألم لا يطاق ، أشعر وكأننى فأر تجارب ، ٠٠ اتفرج يا سلام ، هكذا اصطدمت عبلة بعنتر عندما قابلته عند بئر الأحباش ، وهذا هو الأمير حسن ومعه شيوخ بنى سلامة ، قال لى الدكتور عبد الحميد يونس رحمه الله انه حاصل على درجة الدكتوراة بدراسة عن قبيلتى (بنى سلامة) ٠٠ يومها ضحكت حتى يسمعنى الدكتور يونس ، كان رجلا رقيقا وعالما وفيلسوفا ساخرا اتفرج يا سلام ٠٠ نزعت الأمبوب من حلقومى ، انزعج الطبيب الكبير ، صرخ ، صرخت ، ٠٠ كان غاضبا لأن جهده لم يسجل على الشريط واننى أفسدت عليه متعة مشاهدة حالة فريدة على جهازه الفريد ، وكنت أنا غاضبا لأنه جعلنى (مشخصاتى مرض) يقدمنى فى عرض عام لمن يريد من أطباء القسم دون مراعاة لما أعانيه من ألم ٠٠ تذكرت فيلما يدور حول هذا المعنى مات فيه الممثل وهو يقوم بعرض مرضه أمام تلامذة الطب ٠٠ أصر الطبيب الكبير أن يبدأ من جديد وهذه المرة بدون تخدير ، يتحدانى ٠٠ اذا كنت تعتبر نفسك انســانا لك شهرة خاصة وصاحب وظيفة تشتغلها فأنا الآن أملك أن أميتك ٠٠ وأن أجعلك عبرة لأمثالك ٠٠ وأدخل الأنابيب بقسوة وبعنف ، كنت قد عدت لحالة اللا شيء ٠٠ ناديت بكل خلية من خلايا جسدى ٠٠ يا منان ٠٠ سحب الطبيب الكبير الأنابيب والأسلاك ثم نظر نحوى فى لا مبالاة وأخذ يشرح لى مرضى بطريقة علمية جافة متعمدا ذكر كل

الأخطار وأهمها أنه لا شفاء ·· استرحت ، أردت أن أصـــافحه شاكرا ·· الآن هدأت نفسى ، عرفت أن طبيبى المعالج يتظاهر أمامى بأن مرضى لا شيء ·· انها مجرد وعكة ·· ولكن هذا العبقرى شرح لى كل شيء بالتفصيل العلمى البارد ، وحملونى ثانية ، يخترق موكب زحام ممرات القصر العينى وردهاته ·· الحوائط لها لون وردى ·· والأسقف بيضاء بعضها تزينه الرسومات ، موظف الأمن لم يعـد يجرى لاهثـــا ، كان الموكب يسير فى تريث ، لا داعى للاســـتعجال ، فلم يعد هنـــاك ما يهم ·· يضعوننى فى ســيارة الاسعاف ·· لم يتكلم أحد ·· تذكر موظف الأمن قناع الأكسوجين فوضعه على فمى ، لم أشعر بالفرق بين هواء العربة وهواء أمبوبة الأكسوجين ، عدت الى غرفة الانعاش ·· الشاب الذى يسأل عن كوب الشاى بالحاح ازدادت رغبته فى طلبه ، ·· قال انه يرغب فقط فى الامساك بكوب الشاى بين يديه ، أخذ يداعب الممرضات ، الطبيب المريض يشكو لزوجته تعسف الممرضات ، لمحتنى الزوجـة العجوز من خلف الستائر ، شعرت بالرعب لنظرتها المتفرسة ، وتقززت من لون شعر (بروكتها) الرديئة الصنع ، ·· أخرجنى طبيبى من حالة التأمل راح يعطى المزيد من الأوامر لم أناقش معه أمر مرضى قلت فى هدوء :

ـ هل تعلم أننى بحثت عنك قبل سفرى للحج ولم أجدك ·

قال مبتسما فى ود :

ـ وهأنت وجدتنى الآن ·

قلت فى معاتبة :

ـ كنت أريد أن أطمئن قبل سفرى للحج ·

قال وهو ينصرف بعد أن ألقى بكل أوامره الصارمة الى هيئة التمريض :

ـ أطمئنك قبل الحجة القادمة ·

لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك .. الله أكبر .. يا رحمه لكل العالمين يا رحيم بكل المؤمنين .. يا منان .. جاءت ابنتى كان كل شىء واضحا على وجهها .. وكذلك على وجوه الأصدقاء الذين نجحوا فى التسلل الى فراشى .. كانوا يعلمون .. أوصيت بكل ما تذكرت .. ابنتى كانت على وشك الزواج فليتم زواجها .. أوامرى لا تناقش أنهيت كل ما يربطنى بالدنيا .. سـعدت ، بدأت رحلة لقــاء الأحبة .. جاء ياسر .. اجلس يا ياسر واقرأ لى من أول سورة البقرة .. سعادتى تزداد .. الأسلاك والأنابيب وقياس الحرارة والنبض والضغط لا شىء ، اقرأ يا ياسر .. هذا ما تبقى .. المنان ، الحنان ، الحليم ، الخالق ، البارىء ، المصور له الأسماء الحسنى .. سبحانك أنت وحدك من تعطى وأنت وحدك من يأخذ .. يا حبيبى يا رسول الله .. صلوات الله عليك وسلامه ، هأنا قادم يا صديق يا أبا بكر .. يا من كنت عونا وسندا وصديقا وزميلا وخليفة لخير الأنبياء .. هل يمكن أن ألقاك ؟ يا من بكيت فى صلاتك لمرض محمد .. ورفعت سيفك دفاعا عن دين محمد بعد وفاته .. كنت صادقا فى القول والفعل .. ما أكرمك عند الله .. ! وأنت يا أمير العدل يا عمر .. هل ألقاك واستمع اليك .. هل حان موعد لقائى بكم بعد أن عشت حياتى أمثلكم فى خيالى وأنا أقرأ عنــكم اقرأ يا ياسر .. انه الله الواحد الأحد ولو كره المشركون .. الحمد لله الذى هدانى الى هذا ، الحمد لله الذى أعطانى نعمة الحمد وهدانى الى خيرات الشكر .. بكى صديقى محمود وهو يخبرنى بتعثر سفرى لاجراء الجراحــة .. قالت ابنتى لم أكن أعـرف ان كل هؤلاء يحبونك .. لم أكن أعرف قدرك يا أبى وصحوت من نومى لأجد زملاء فى العمل يبكون وهم يلثمون يدى .. يا الله .. كم كنت قاسيا عندما تجاهلت كل هذا الحب ، كيف تصورت انهم لا يشعرون بى فكنت أتباعد حتى لا أحرج مشاعرهم .. والآن يا سادة انتهى العرض ، ها هى دنياكم تصارعوا حولها كما تحبون أما أنا فراحل

عنها ياه كل هذا الصراع من أجل شيء ذاهب عديم الفائدة .. !
تشاجرت لأنهم أرادوا تقليد منظمة الشباب السوفيتى وأيضا عندما حذفوا جملة من حوار احدى مسرحياتي وتشاجرت عندما تجاهلوا اسمى فى أحد الأعمال الفنية وحولونى مرة الى المحاكمة ثم فصلونى ثم أعادونى ثم فصلونى ثم أعادونى .. وفى كل مرة يأخذنى الحماس البشرى .. أنا الأفضل أنا الأجدر .. أنا لا شيء جسدى لا يقدر على الحركة وعقل مشوش .. يا الله .. يا منان .. نعم يا منان لله الحمد .. كم مرة ذهبت الى كعبتك .. كثيرا .. كم مرة صليت بجوار قبر رسولك وفى الروضة الشريفة .. كثيرا .. كثيرا .. كم مرة نجحت .. كم نعمة نلتها .. لا أحصيها عددا .. لك الشكر ، أخبرنى محمود وهو يبكى أن جهودا مكثفة من الجميع تبذل لكى أسافر الى الخارج ، وانهم يحاولون ، قالت زوجتى ان الأمر بيد رئيس الوزراء ، فقلت فى وهن .. الأمر بيد الله تذكرت سيارتى المركونة بأحد شوارع وسط البلد .. رجوت نقلها حتى يتمكنوا من بيعها للانفاق على (عرس ابنتى) .. كل كيانى يهتز عندما أتذكر ابنى الصغير .. منعوه من دخول المستشفى .. جاء الطبيب الأسمر الذى أنقذ الشاب من الموت وجلس على حافة الفراش .. أخذ يشرح فى جدية شديدة خطورة اجراء الجراحة .. وانهم لم يتوصلوا بعد الى حل بعض مشكلاتها .. وقال ان الطبيب العالمى الذى يسعون الى عرضى عليه لم ينجح هو أيضا فى حلها .. ابتسم وكأنه يحكى لى (حدوتة) .. لم أشعر بمرارة تجاهه .. كنت قد صادرت غريزة الكراهية فى صدرى .. لم يعد أمامى الا أن أحب كل الناس .. أخبرتنى أختى التى جاءت متهللة أنهم نجحوا فى الحصول على توقيع رئيس الوزراء .. وان زملائى فى العمل يبذلون أقصى ما لديهم .. ابتسمت وقلت :

— لا تخبرى أبى وأمى .

نهرتها الممرضة لأنها خالفت التعليمات ، نجح المريض المحب

للشاى فى الحصول على كوب صغير ، سمعت أصوات ارتشافة ثم تتالت ضحكاته ، ٠٠ الشباب هو الحياة ، ٠٠ رقدت فى استسلام جاء الطبيب وأخبرنى بالسفر ، لا شىء يهم ، لم تعد الدنيا تغرينى بالمزيد ، ٠٠ تذكرت دينا صغيرا لم أسدده ٠٠ رحت أتوسل الى الممرضة أن تدخل الى ابنتى ، جاء صديق عزيز وضع بعضا من المال بجوار فراشى ، قال : هذا حقك ، أمرت ابنتى ان تسدد دينى ٠٠ لم أعد أهتم ٠٠ رأيتهم يدفعون بى خارج غرفة الانعاش ٠٠ الجو بارد ، أركبونى الطائرة نجحوا فى الحصول على الموافقات والتأشيرات ولكنهم نسوا ملابسى ٠٠ حملنى (ونش) شركة الطيران كما يحمل حقائب المسافرين ، ثم زجوا بى فى مكان ما بالطائرة ٠٠ أخاف من ركوب الطائرات ٠٠ سافرت مئات المرات وفى كل مرة أشعر بالقلق والخوف قبل السفر بيومين على الأقل ثم بالفزع عندما أجد نفسى مربوطا على المقعد ، عندما أراد أحد الأصدقاء من قائدى الطائرات أن يطلعنى على طريقة اقلاع الطائرة وأجلسنى على مقعد بجواره فى كابينة القيادة ، اضطر بعد أن ارتفعت الطائرة الى مســـارها فى السماء الى حمل جسدى باردا يرتعش من الخوف ويضعنى بمقعد بالدرجة الأولى مع التوصية الكاملة لرفع روحى المعنوية ٠٠ ولكن هذه المرة لم أخف ٠٠ ولم الخوف اذن ٠٠ وضعونى وبجوارى طبيب قلق ظل طوال الطريق يسألنى عن حالتى ٠٠ وأنا لا أعرف بالضبط ما هى حالتى ٠٠ وعندما وصلت الطائرة الى مطار لندن اكتشفت المضيفات أننى أكاد لا أرتدى شـيئا من كثرة تمزق منامتى لكى يضعوا الأســلاك والأنابيب ولا شىء فى قدمى ٠٠ وأسرعن بلف جسدى بالبطاطين الخاصة بالطائرة ، كنت أسمع عن جـو لندن البارد ، بل انه شديد البرودة وعن السماء الملبدة دائما بالغيوم ، ولم أكن قد سافرت الى لندن من قبل ولكن كل ما قرأته عنها يقول هذا ، البرد والضباب ٠٠ هذا ما توقعته ، ولكن رأيت السماء صحوا والشمس مشرقة ، وظلال الأشجار منعكسة على أسطح المنازل ذات الأسقف المغسولة ٠٠ ، والجو داخل السيارة دافىء ، والسائق

يبتسم وكأننا ذاهبون الى حفل ٠٠ وجاءت الطمأنينة ٠٠ عندما رأيت أخي جالسا بجواري ، ومن نافذة السيارة التى كانت تخترق بنا الشوارع ، رأيت المنازل ذات الأسقف كما سبق وأن شاهدتها في الأفلام ، والشمس تغطى تلك الأسقف والأشجار خضراء تتمايل فروعها ، أحاطني أخي بذراعه ، ورحت أنا أتأمل الشوارع في دهشة لأنها خالية من المطر والضباب حتى توقفنا أمام المستشفى ، أشار السائق أن هذا هو المستشفى الذى يستقبل مثل هذه الحالات ، ولكن ليس لديهم علم بأمرى ، توكلنا على الله ٠

دخلت المستشفى ٠٠ وضعوني في حجرة صغيرة ضيقة ليس بها الا نافذة واحدة وعندما نقلوني الى الفراش تذكرت أنهم فى مصر تركوني أسافر بدون حذاء ، لم أشعر بالراحة وطلبت تغيير الحجرة ، وجاءت ممرضة سوداء لها تقاطيع زنوج أفريقيا وراحت تمطرنا بالتعليمات فوجدتني أضحك بشدة ثم أخبرتها أنني لن أفعل كل شيء مما قالته وانني لن أنفذ تعليماتها ، واضطربت السوداء وغادرت الغرفة ، وراح أخي يوبخني على ما فعلت لأن الغرفة للعلاج وليست للفسحة فنحن هنا من أجل جراحة مهمة ، ومشكلتنا المؤكدة أننا لسنا على موعد مع الجراح الذى لا يعلم عن وجودنا شيئا بالمرة واننا أمام مأزق لا يقدر على حله الا الله ٠٠ لأن العملية يجب ان تجرى الليلة ، بل الساعة ان أمكن ٠٠ فدع عنك تلك التفاهات ودعنا نفكر في طريقة لمقابلة الجراح ٠٠ وخاصة أن المستشفى لا يعرف عنا شيئا أيضا وانهم استقبلونا لسوء الحالة لا أكثر ٠٠ كانت هذه أول مرة أرى أخي يائسا ومنهكا وجادا أيضا فقلت ضاحكا :

– أنا لم أنم فى هذه الحجرة رغم كل ما قلت ٠

ابتسم الطبيب الذى كان يلازمني في سفرى ، وقال :

– المهم ٠٠ هل أحدكم يعرف شكل الجراح الشهير ٠٠ ؟

قال أخي في دهشة :

ـ وهل انت لا تعرفه ٠٠ لا تعرف شكله على الأقل ؟!

رحت أرقب الغرفة بضـيق ، أفتش فيهـا عن شيء يجعلني أحبها ، لم أجد ، جلست مستسلما ولمحت من النافذة الشمس وهي تغرب ٠٠ كان أخي والطبيب يتشـاوران ، جاءت الممرضة السوداء ومعها تلال من الأوراق يجب أن أوقعها أولا ، ثم جاءت أخرى لكي تجرى لي القياسات الطبية ، شعرت بالمرارة وقد غابت الشمس وحل الظلام سريعا ، قفز الطبيب المرافق وكأن عقربا لدغته ، كانت يد الممرضة السوداء وهي تزيل الشعر عن صدري قاسية ، لم يعد الألم يهم ، رقدت في استسلام ، أقمت الصلاة ٠٠ الله أكبر ، رأيته واقفا مثل عملاق الأساطير يبتسم ، أسمر الوجه ، شعيرات بيضاء تلف رأسه ، يده ممدودة نحوي ، عشقت هذا الوجه ، قال في لهجة مصرية :

ـ سأنقلك الى المستشفى الأفضل ٠٠

أجبته بالانجليزية :

ـ افعل ما يحلو لك ٠٠ أنا تحت أمرك ٠

عرفت أن هذا هو الجراح الكبير ، استدار وخرج ، كان الطبيب المرافق في قمة السعادة والزهو ، كان يقص علينا كيف عثر عليه مصادفه ، وكيف عرف من الحذاء الكاوتشوك أنه هو من ملابسه الرياضية الخضراء ، وثب اليه ووضع أمام عينيه التقرير الطبي ٠ الجراح كان خارجا لتوه من جراحه في القلب متجها الى غرفة عمليات أخرى شعر أن هذه فرصته الوحيدة ، كان يحكي لنا وهو لايصدق بعد ما فعله ، كانت فرحته غامرة ، ظل يردد كلمات الحمد لله ونحن في عربة الاسـعاف المتجهة الى المستشفى الآخر ، وكنت أنا سعيدا بانتقالي من تلك الغرفة الضيقة التي رأيت من خلال نافذتها غروب الشمس ، وكملت سعادتي عندما تذكرت أنني لن أنفذ فعلا تعليمات تلك الممرضة السوداء ٠٠

الغرفة هنا فسيحة لها نافذتان أرى من خلالهما أرضا خضراء لا حدود لها ·· الظلام لم يعم بعد ، رقدت على الفراش ، شعرت بالراحة ، جاءوا وحملونى على فراش متحرك ، نظرت الى أخى وقلت فى رجـــاء :

ـ تأكد من تخديرى بالكامل ·

تساقطت قطرات دمعه على يدى ، نحاه الرجـل الذى يقود المجموعة التى من حولى جانبا ، السرير المتحرك يحدث صوتا ، أدخل مصعدا واسعا جدرانه تبرق بشـــدة ، ثم ينفتح المصعد لنسير فى ردهة طويلة أرى السقف جيدا ، هذه لونها فستقى ، أما الســابقة فكان لونها يقترب من لون قشرة البرتقال ، الجدران ألوانهـــا مختلفة ، يضعون باقات الزهور على حوامل أمام النوافذ المغلقة ، اللون الأخضر هو اللون الغالب ، أدخل مصعدا آخر جدرانه تبرق أيضا ، الرجال لايتكلمون أكاد لا أسمع لهم تنفسا ، انفتح المصعد ودلفت الى ممر يبـــدو ضيقا ولكنـه مضىء ، اللون الأبيض يعود للظهور ، يمر فراشى المتحرك بسهولة من الفتحات ، لا أحـد يقول شيئا ، دفعونى الى حجرة شعرت فيها بالبرودة ، أرقدونى ورأيت الكشافات يتدفق منها الضوء المبهر ، حملقت فى وجه الرجل الأسمر كانت يداه ممتدتين نحوى وفمه محجوبا بقطعة قماش أبيض ، سألت نفسى هل هو من أصل ايرانى ؟ ، بل يبدو أنه من أصل باكستانى أو هندى ·· انشغل عقلى بهذه المسألة ·· تعجبت لأننى أبحث عن أصوله ·· هل هو هندى أم ايرانى ؟! فى مكة المكرمة الطعـــام هندى ·· الأرز بالكارى والشطة ·· واللحم المسلوق المدلوق على الموائد ، الأفغان يشكلون نسبة كبيرة من عمـــال المطاعم ·· منذ عشرين عاما كنت معتمرا ·· قضيت شهرا أتناول طعامى فى مطعم كل عماله من الأفغان ·· وجميعهم لهم أسماء الأســـود والنمور والأفيال ·· كنت أتضاحك مع أسد ، أقصد عامل المطعم المسمى بهذا الاسم ، وكانوا يتعاملون معى بحب ، يضعون لى كوب الشاى

داخل أبريق الماء ، هذا أمر خاص بى وحدى لأنهم لايقدمون الشاى وقت الذروة ٠٠ رمضان والجميع صائمون ويريدون أن يفطروا ، الطلبات تهرول الى الموائد والأفواه جوعى ولا أحد يتكلم العربية ٠٠ العمال يصيحون بلغة غير مفهومه ، ولكن الاشارة تكفى نحن هنا فى مكة أو فى المدينة ولاتجد من يتكلم معك بالعربية فى تلك المحلات ٠ الزحام شديد ، اللافتات مكتوبة بالايرانية والباكستانية وبالانجليزية ٠٠ الطرق تعج بالناس من كل فج عميق ٠٠

الضوء الساطع يعمى بصرى ٠٠ لا أدرى ، عندما دخلت الى الكعبة فى أول مرة لى كانت الاضواء تأخذنى وتلهبنى ، وطنين المراوح يئز من حولى ، الهواء ساخن والحرارة شديدة ، وضعت قدمى فى حذر على الرخام ٠ كنت موقنا من الصراخ ، ولكن الرخام بارد ٠٠ وضعت القدم الأخرى ٠٠ مشيت ، اتجهت الى الكعبة ٠٠ تفرق الصحاب وأنا لا أعرف ماذا أفعل ٠٠ كيف أؤدى المناسك قلت لرفيقى لاتذهب بعيدا عنى ٠٠ ولكنه ضاع فى الزحام ٠٠ أمسكت بيد زوجتى التى كانت أشد منى خوفا ، تشبثت بملابس احرامى ، تعرى صدرى ، أحسست بلفحة هواء بارد طغت أصوات التكبير على كل الأصوات ٠٠ لبيك اللهم لبيك لاشريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك ٠٠ ورحنا نطوف حول الكعبة ٠٠

والآن ٠٠ أدخل الكعبة معتمرا ، احرامى ينزلق من على صدرى أحاول أن أعيده ٠٠ تمنعنى أياد كثيرة ، لا أقدر ، ألم يأت من بعيد ٠٠ اتخذ خطواتى نحو الحجر الأسعد ، المسجد الحرام قد اتسع هذه المرة ، لا زحام فى الطرق ولا أحد قابع أمام الأعمدة الضوء ساطع رغم اقترابنا من الفجر ، لسعة برد خفيفة أشعر بها فى جسدى ، برودة رخام تضغط على كفى القدمين ، ماء الندى يجعلنى أمشى محاذرا ، أصل الى الحجر الأسعد أقبله أبدأ الطواف الله أكبر ٠٠ الله الفرد الصمد الحى الواحد الموجود الواحد الأحد

.. المنان .. أقترب من حائط المعتزم ، أمسك بحوافى الستره ، القماش السميك والنقوش البارزة ، لا أقدر على وضع صدرى .. أنادى المدد يا الله ياغفور يارحيم .. أصرخ من أعماقى أنا العبد الذليل اليك ، أنا الذى يأمل ثوابك ، أنا الغريق الذى يتلهف على أن تمد يدك اليه ، أنا عبدك وابن عبدك وتدور رأسى .. أرفعها .. أواصل الطواف ، هذا هو حجر اسماعيل .. ياقلبك يا ابراهيم .. وضعته هنا قطعة لحم وتركته هو وأمه لكى تأتمر بأمر ربك .. وأكمل الطواف .. هذا طوافى الرابع ، ثم الخامس ، .. تتساقط دموعى ولا أملك حبسـها ، أنهى طوافى وأقف مصـليا خلف مقام ابراهيم .. يارسول الله .. يامن بنيت البيت بأمر ربك .. الصلاة عليك .. الله أكبر .. أصلى الركعة الثانية ، أختم الصلاة ، ألوذ بالستر مرة أخرى ، أود أن أضع صدرى لا أقدر .. أعود الى زمزم أتوضأ .. أشرب .. يبللنى الماء أسعد به .. أجلس فى حرم الكعبة .. أتأمل الأعمدة والمصابيح والكشافات ، يؤذن لصـلاة الفجر ، ساووا صفوفكم يرحمكم الله .. أقف منتبها .. أعشق صلاة الفجر فى حرم الكعبة .. ينصرف الناس ولكنى أبقى .. الى أين أذهب ، لن أفارق الحرم .. أرقد مسـتريحا .. تأتى صـلاة الظهر .. الناس فى الحرم قليل .. ثم صلاة العصر بعدها أذهب لأتوضأ من جديد وأبدأ الطواف .. لماذا أنا هنا ، قدماى متعبتان وجسدى واهن ، ولكن عقلى صاف .. أتذكر كل المرات التى أتيت الى هنا .. أحلم أن أعيش وأموت هنا .. أتمنى أن أظل بقية حياتى بجوار الكعبة .. فى هذا المكان أشـعر بوجودى وبعقلى وتخف آلام جسدى وتذهب آلام نفسى .. أقول لزوجتى أحيانا اننى مخبول أو بى خلل عقلى .. تضحك وتقول بل هو ذكاء .. أشعر بغيظ لأنها لاتصدق أننى أقرب الى اختلال العقل من اكتماله .. كثيرون آذونى ولم أفطن اليهم الا بعد أن نالوا منى ومن كرامتى وأضاعوا حقوقى .. كثيرون أخـذوا أعمالا دون مقـابل ، ويتكرر هـذا وأنا لا أعرف كيف أدافع عن حقوقى ، شكوت الى أحد الأصـدقاء

ابتسم في رثاء وقال : أنت عبيط ، يجب أن أتوضأ فقد أخذتني أمور الدنيا عن التعبد ، كيف أضيع ثانية واحدة ناسيا ذكر الله ·· سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله ولا حول ولا قوة الا بالله ·· واقف خاشعا في صلاة العشاء ، بعد الصلاة تذكرت أنني لازلت بملابس الاحرام ، لم لا أخرج وأعود لكي أعتمر ثانية ·· لم أفعل هذا من قبل ، اذن سوف أجرب هذه المرة ·· خرجت وتوضأت في مسجد عائشة وعدت ·· لا أدرى كيف عدت ·· فقد وجدت نفسي في بداية الطواف ·· حياتي الماضية لم تعد أ.را مذكورا ، سامحت كل من أساء الى وتذكرت نعمة ربى ·· خلقني من عدم ، وأعطاني أبا حنونا وأما طيبة ، ورزقني العمل الصالح ، وأحاطني بالأصدقاء دعوت لمحمود ·· ولشقيقاتي وأشقائي ولأهلي ولأولادي ·· ورحت أتذكر كل معارفي أدعو لهم جميعا ، الحب يملأ صدري ، ولكن البكاء لايتركني أنهى الطواف والصلاة والسعي ·· وأجلس ·· أشعر بالاجهاد ·· حان وقت صلاة الفجر ·· والظهر والعصر ·· أتذكر أنني يجب أن ألمس الحجر الأسعد ·· أذهب اليه أتأمله ·· في كل مرة أراه بلون مختلف ·· أول مرة لونه أزرق ومرة أخرى رأيته أسود ·· ورأيته ذات مرة أبيض اللون ·· يتلألأ في ضياء ·· لم أعد أهتم باللون ·· فقط الرمز ·· هكذا قبلك رسول الله صلوات الله عليه وسلامه ·· وهكذا أشار اليك ·· فلنفعل كما فعل الرسول الكريم ·· هذا أوان صلاة الفجر ، لم أغادر الحرم ·· أعرف مواعيد الصلاة لا أغادر مكاني الا لكي أتوضأ من جديد في زمزم ·· أعرف طريقي ، أحفظ كل شبر في الحرم ·· أميز كل الأصوات ·· وعندما أشعر بالندم أبدأ بالطواف ·· في الطواف أتحدث مع ربي ·· أقول كل شيء أنا بين يديه ·· عبد يسعى في رحاب خالقه ، أشعر بالأمان ، أقول ما يخطر لي على بالي ، أنادى يا منان ·· أعلم أنه يسمعني ، كل شيء بمقدار ، قبضته على خلقه بمقدار ورحمته بمقدار وعفوه وعذابه أيضا ، والمقدار يقدره هو لا نعلم مداه نحن ·· فلنسع بين يديه سائلين

مغفرته .. أذهب لأتوضأ .. هذه الأكواب جعلت من الوضوء في زمزم أمرا سهلا .. سكبت الكثير من الماء .. شعرت بالبرودة .. ولكن يبدو أن هناك من يريد أن يجففني .. همست طالبا ترك ماء زمزم .. رأيت وجه أخي .. وجهه أسمر ، همس في اصرار :

ـ انتهت الجراحة .

رحت في غفوة كانت صلاتي قد أجهدتني وطوافي قد أنهك قواي .. استسلمت للنوم ، أيقظني أخي وراح يمسح بمنشفة ماء الوضوء ، قلت في اصرار :

ـ دع ماء زمزم ، أنا أحبه هكذا .

رفع يده بالمنشفة ، جلس أمامي ، لم أكن قد تبينت ملامحه جيدا ، ولكن أحسست أنه يبتسم ، في كل مرة أسافر الى مكة كان هو الذي يودعني حتى المطـار وكان هو أيضـا الذي يستقبلني ، فلم أدهش من وجوده ، قال في ود :

ـ ألم تسمعهم يصرخون عليك .. الجراحة قد انتهت .

تذكرت الآن .. كانت هناك أصوات تقاطعني في صلواتي الأخيرة ، ولكنها بلغة انجليزية .. تذكرت الكلمات كان معناها .. العملية انتهت .. حاولت أن أتلفت ولكني لم أستطع ، حاولت القيام فلم أتمكن ، كنت أرى من ينحني فوقي مباشرة ، وكان أخي هو الذي يفعل ذلك ، غريب أمر أخي هذا فأنا دائما أصفه بالغباء وهو يبتسم في كل مرة أقول له هذا ، بل أنا على يقين من غبائه ولكن هذه المرة لايبتسم ، يبدو أنني تبادلت معه مواقع الغباء ، فقد صرت أنا غبيا ، أنا أحدثه عن عمرتي بالبيت وصـلاتي وهو يخبرني بأني نجوت ..

نجوت ؟ .. حاولت أن أتلفت حولي لم أستطع ، عقلي استوعب ما أنا فيه ، الحجرة الفسيحة بالمستشفى أرى من مرقدي منظر

الحقول الخضراء المترامية الأطراف ، وأرى (شـــارون) .. لماذا
اسمها هكذا ، (شارون) رئيسة الحكيمات تسعى للحصول على
الدكتوراة كما تسعى الى امتلاك أمر نفسها بعد تجربة زواج فاشل
صارمة جادة ، مجتهدة ، تبتسم بحساب ، تدور حولى فى رشاقة ،
شعرت بالحب نحوها ، غادرنى أخى معتذرا أنه تغيب عن عمله
الدبلوماسى كثيرا ، أخبرنى أنه قد مضت أيام كثيرة منذ ان أجريت
الجراحة .. لم يستطع مفارقتى الا بعد أن يطمئن على عودتى الى
الحياة ، تأملت عينيه ، كان [illegible] حزينا [illegible] وجهه حتى
لاتسقط دموعه على وجهى ، قال انه سيسافر لعدة أيام [illegible]
ويعود ليظل بجوارى ، مضى .. سـمعت خطواته وهو يمضى ،
شعرت باليتم .. عدت ضعيفا وخائفا ومضطربا ، جاءت شارون
أخبرتنى بسفر أخى وأنها تعرف أين جواز سفرى [illegible] وأنها
[illegible] ، أعرف أن أخى [illegible] معاملة البنات
وأن [illegible] كل فتيات العالم [illegible] الألم
فوق قدرتى ، والصراخ لا يأتى ، بجسدى [illegible] الثلج والألم
ينشر سيوفه فى صدرى ، تعطينى شارون جرعات الدواء ، العرق
يتصبب من جبينى ، قالت شارون :

.. أنت أول من يخرج بعد هذه الجراحة حيا

كانت تبتسم فى برود [illegible] بالضيق بل [illegible]
بالامتنان ، ولكن [illegible] أخاف [illegible]
تشبثت بالحياة ، وجرعت من الموت .. لم تصلح [illegible]
(شارون) كانت تقول فى حسم [illegible] تطالب بالمزيد

أخذت جرعتك المقررة ، لن تأخذ غيرها

أعاند وأبكى ، وأتوسل بلسانى الواهن [illegible]
بناتى [illegible] الكبرى هل تزوجت ، جعلتنى أتذكر أسرتى ، أين
هم الآن وكيف هم ، وماذا يفعلون ؟ الشوق يهزنى ؛ [illegible] بناتى

وابنى تطوف بى ، يئز جسدى ألما ، لا أحد ، الفراغ من حولى ، كل يوم الثلج يغطى الحقول الخضراء فى الصباح ، تدخل الممرضة المسئولة عن النظافة تغنى بالاسبانية ، سيدة عجوز ولكنها ترتدى وتتصرف وتتحرك مثل البنات الصغيرات ، تنفق على أحفادها ، تسكن فى القرية التى يوجد بها المستشفى ، علمت منها أن المستشفى فى قرية صغيرة بعيدة عن لندن بمسافة كبيرة ، اذن أنا معزول عن العالم ، والألم ينهش صدرى نهشا ، لا أطيقه ، أرى من مرقدى مركز الحكيمات والممرضات فى وسط صالة دائرية يحيط بها حجرات ثلاث ، أنا فى احداها الأجهزة تملأ الصالة وتتصل بالحجرات الثلاث (الرئيسية) فى الوسط تسرع نحوى ، تناولنى الدواء ، تأخذ فى اجراءات القياسات الطبية ، تكتب شيئا ، استرعى انتباهى أنها تسير على قدميها وأنها تملك القدرة على الحركة والكتابة وقياس الضغط أليس هذا أمرا معجزا ، كان التليفزيون معلقا بحيث أراه وأنا مستلق على فراشى المذيعة هى أيضا قادرة على الحركة ، بل ان المغنى يرقص ، هذه نعمة من الله ، أريد أن أمد يدى .. لا أستطيع ، أن أحرك قدمى لا أستطيع ، جاءت شارون ليلا قالت وابتسامة شاحبة تبلل شفتيها :

ـ أنا معك الآن .. لاتخف .

كيف عرفت أننى خائف وأننى وحيد ، لماذا لايسأل عنى الأصدقاء ، أليس لنا مكتب هنا فى لندن ، تذكرت أن المستشفى يبعد عن لندن بمسافة طويلة كما أخبرتنى الممرضة الاسبانية ، قالت شارون :

ـ يتوقعون أصابتك بالشلل بعد هذه الجلطة

ابتسمت رغم شق الصدر ، وقلت فى نفسى الشلل هين ، أفضل من الموت ، أستطيع الكتابة وأنا مشلول .. ولكن الألم يجب أن يكف أنه يخنقنى .. قالت شارون :

ــ يبدو انك لاتعرف أنهم شقوا صدرى بمنشـــار كهربائى وأنهم دفعوا بعظام الصدر الى الخلف بواسطة ماسكات حديدية وأن هذا أخذ وقتا ٠٠ ولابد من الألم ٠ ازداد الألم ، لماذا ياشارون كنما اقتربت منك ، ازدادت كلماتك برودة ، لم أقل لها شيئا ، كنت أعلم أنها الوحيدة التى تهتم بى انسانيا ، زميلاتها لا يتكلمن معى ، فقط يقمن بالعمل فى اهتمام وكذلك الطبيب المساعد للجراح الذى يأتينى كل ساعتين ، عيناه على لوحة البيانات المعلقة على سريرى ، ثم ينظر الى صدرى ، ويلقى بتعليمات جديدة ٠٠ وعندما تصادف وجـــود (شارون) معه ، قالت له شيئا عن الألم ، أمر باضافة كبســولة أخرى عند الضرورة مع مراقبة حالتى ، سعدت بأمر (الكبسولة) ٠٠ لم تبتسم شارون وقالت فى جدية :

ــ سوف تأخذ حماما ٠

توسلت بكل ما أملك من قوة بلسانى الواهن ، لا أريد ٠٠ وعندما شعرت انها مصممة وأنا لا أملك الا الرجاء ، قلت :

ــ اذن ٠٠ فليكن فى الغد ٠

يبدو أن (شارون) لها قلب يرق أيضا ، وضعت يدها على رأسى ، رأيت مكان خاتم الزواج المنزوع ، قلت فى امتنان :

ــ شـــكرا ٠

عاد الظلام يغطى الحقول ، جاءت الممرضة وأسدلت الستائر ، رفعت فراشى أسفل رأسى ، ارتفع جسدى قليلا الى الأمام ، أصبحت أرى شاشة التليفزيون بوضوح ، كانوا يقدمون فيلما تسجيليا عن منطقة زينهم فى بلدى ٠٠ لا أملك أن أغلـق التليفزيون تجرعت مرارة عرض الفيلم المهين والمستفز وأيضا الكاذب مع مرارة آلام الصدر ، جاءت شارون ٠٠ هالعها ارتفاع الضغط نظرت نحوى ثم الى شاشة التليفزيون أسرعت وغيرت قناته ، قالت فى ندم :

ـ انهم هكذا دائما يكذبون ·· ليس فقط على العالم بل على أنفسهم · لم أجب ، استرحت لأنها فعلت ذلك ، يزعجنى من يسب بلدى ·· بلدى سيظل هو الأعظم والأفضل والأقدم حضارة ولو كره الحاقدون انثالت دموعى ، تذكرت (خوفو) الملك الذى يصورونه على أنه أقام نظام السخرة ، (خوفو) هذا ، نظر ذات يوم من نافذة بيته الملكى وقال يا الهى ·· (لا تحاسبنى على انسان جائع لا أراه فاجعلنى أرى كل الناس لكى أعطيهم ما يملأ بيوتهم من طعام) ·· خوفو قال هذا وترجمه الألمان والأمريكان ثم ترجمه بعـــد ذلك المصريون المعاصرون ، وتذكرت الطبيب الذى أخرج مسمارا حديديا من رأس أحد العمال الذى قام بعدها يتكلم ، حدث هذا منذ ما يقرب من أربعة آلاف عام وهم الآن يتباهون علينا بالعلم ·· ويا بلدى ·· ياولدى ·· يا أهلى ·· أنا هنا وحيد ، بلادى ·· بلادى ·· لك حبى وفؤادى ·· لك عينى ·· لك الحياة كلها ·· يا نيل كم أوحشتنى ··! فى نهاية أغسطس يخرج من كل أسرة فى قريتى شـــاب ، وهؤلاء الشباب يشكلون جيشا لحراسة جسر النيل · الفيضان على وشك الانفجار ، الأرض لازالت عامرة بالزرع الأخضر أرض أسرتى بجوار النهر ، أول أرض يجرفها الفيضان ·· أجرى خلف أخوالى ، يصرخ أحد الرجال ·· بحرى ·· بحرى يندفع الماء الداكن فى هجـــوم شرس فينهار الجسر الترابى منسحقا تحت الأمواج الهادرة ·· نركب المراكب لنجمع أكواز الذرة ·· ونقضم حبات الخيار الأخضر ضاع المحصول ولكن النهر دائم ·· هذا النهر أحبه ، أجلس القرفصـــاء على شاطئه أنظر الى دوامات الماء ، يأتى المساء ويفرش ملاءة شفافة على مائه يصير الماء والهواء والسماء نسيما واحدا ، وأنا جالس أنظر الى الكون من جلاله ·· ياه أوحشتنى يانيل ·· هذه الأرض الخضراء الممتدة الى مالا نهاية التى أراها من النافذة يغطيها الثلج والضباب ·· وجهاز التليفزيون لايكف ، لاتزال دهشـــتى قائمـــة ·· انهم يتحركون ويتحدثون ويغنون ·· نشرات الأخبار تتحدث عن كل

شيء ، عقلى رغم صفائه لايعى كل الأشياء المحيطة حولى ٠٠ جاءت شارون وقالت فى اقتضاب :

ـ الحمــــام ٠

قلت فى استكانة ٠٠ غدا ٠

قالت فى حسم وابتسامة أم تعرف عناء طفلها :

ـ واليوم هو هذا الغد ٠

رفعونى ، شعرت بالهوان ، كنت عاريا والممرضات من حولى ، وضعتنى شارون فى (البانيو) ، الممرضات يزلن عن جسدى الذى لا أشعر به الكثير من آثر العلاج ، أكاد أذوب خجلا ، كيف أتعرى أمام نساء غريبات ، لم يحدث هذا منذ أن كنت طفلا ، جدتى كانت تقوم على حمامى ٠٠ وفى أحد الأيام منذ زمن طويل جدا ، رفضت أن تدخل جدتى معى الحمام ، حاولت ولكنى صممت ، ضحكت وقالت :

ـ أنت حر ولكنك لن تستطيع الاستحمام بمفردك ٠

تركتنى ومضت ، تلفت حولى ، انزلقت قدمى ، وقعت على الأرض ٠ كان من الممكن أن أصرخ ، ولكننى تماسكت ، حاولت أن أستحم بمفردى ونجحت ٠٠ هل تتكرر التجربة مرة أخرى ، بعد الخمسين ومن حولى الممرضات ، تقف شارون مبتسمة وهى ترى وجهى الغاضب ، قلت فى وهن : أريد أن أرتدى ملابس داخلية ، جففونى ووضعونى فى الفراش ، عندما جاء المساء ، عاودنى الألم بشدة هذه المرة أخذت أصلى الفجر ، ثم الظهر ٠٠ وأديت فرائض اليوم حتى العشاء ٠٠ يا منان ٠٠ فى كل لحظة أشعر باقتراب الموت أنادى يامنان ٠٠ لم يعد للحياة نفس الأهمية السابقة ، كل شيء الى زوال ٠٠ سوف يبقى حذائى وشرابى وأيضا متعلقاتى الشخصية التى كنت مهتما بها ، تلك النظارة التى تكلفنى فى تجديدها السنوى

الكثير لم تعد شيئا مذكورا ، بل مجرد قطعة ملقـــاة بلا فائدة على المكتب ، سوف يتخلص أولادى منها أو يتناسونها ٠٠ كل الأشياء المهمة التى أحرص عليها لن تعود كذلك ٠٠ الليل طويل ٠٠ عشرات المرات يقومون بقياساتهم الطبية ٠٠ عشرات المرات أتناول حبوبا ، أوراق كثيرة كتبها الأطباء ٠٠ الصالة المستديرة بها أجهزة تدق وتبرق وتصرخ أحيانا ، المرضات يتحدثن عن احتفالات عيد الميلاد ٠٠ أرى بعض الأشجار الخضراء فى أركان الصالة وأيضا زينات عيد الميلاد ٠٠ يبدو أننى لا أعـــرف متى أنام أو متى أصحو ، كل ما أشعر به أن الألم مثل الموج ، عندما يهدأ يصفو ذهنى وأفكر فى أشياء عديدة لا رابط لها ٠٠ توفيق الحكيم عندما تذكر عصاه وقد نسيها فى المكتب ، أخذ يعاتب نفسه لأنه نسى عصاه ، والآن يا حكيم لماذا تركت عصاك خلفك ؟ ٠٠ كل الأعمال غير المطبوعة سوف تفقد بعد موتى ٠٠ لا شئ يهم ٠٠ عامل المستشفى المغربى ، يأتى فى ساعة راحته ، عرفت هذا من شارون ، قالت انه يحبك لهذا يقضى معك فترة راحته الوحيدة طوال يوم عمله ، يجلس بجوارى ، يحدثنى فى كل شىء ٠٠ فى أركان الاسلام أمنيته أن يحج بيت الله ٠٠ بناته مسلمات يحفظن ما يتيسر من القرآن ويقمن الصلاة ٠٠ ويتحدث معهن باللغة العربية ، لا ينسى بلاده المغرب جاء ليعمل مدربا لكرة القدم بعد أن كان لاعبا فى بلاده ، اكتفى بتدريب أشبال القرية بعد فراغه من العمل فى المستشفى ، يذهب لصلاة الجمعة فى المركز الاسلامى بلندن يشترى لوازم بيته من سوق الجملة ، يقرأ كثيرا ، يتحدث فى علوم التاريخ ، والفلسفة والطب والفلك قرأ كتابات قديمة لحكماء من الهند ، يتابع الصحف الانجليزية سألنى عن الرجل المصرى الذى كتب رواية ضد الاسلام ، حدثنى عن أشهر الأكلات المغربية ، اكتشفت أنها ذات الأكلات التى يجيدها أهل الصـــعيد لم يستطع أخى الحضور كما وعدنى ، اقترب عيد الميـــلاد ٠٠ والأجازات بدأت ٠٠ جاءتنى مكالمات من بعض الأصدقاء بالأقطـــار العربية ، قالوا :

ـ هل نرسل لك مالا ؟

بكيت أنا وحدى ياخلق ، أريد أنيسا ، محمد المغربى يقتطع من راحته لكى يجلس بجوارى ، اشترى لى كريما لحلاقة الذقن ، وبعض الأدوات ٠٠ أشرت اليه أن يأخذ ثمنها ٠٠ رفض ٠٠ لم أكن أدرى هل معى نقود أم لا ؟ ٠

جاء الطبيب وأخبرنى أنه يجب ان أقضى أجازة عيد الميلاد مع أسرتى وسوف يكتب لى الدواء ومواعيده وأيضا سيعطينى خطابا وتقريرا لطبيب الحى الذى تسكن به أسرتى ، نظرت اليه فى بلاهة ٠٠ أخــــرج من المستشفى الى أيــن ؟ وأيــن هى أسرتى ؟ ٠٠ همست اليـــه :

ـ أننى لست من هذه البلاد يا دكتور ٠٠ وأسرتى ليست هنا

قال فى حسم وبرود :

ـ اذن تبقى بالمستشفى !

بكيت لا أدرى لماذا أشعر بهذه الوحدة القاتلة ، جاءت شارون وقالت :

ـ الطبيب أمر ببقائك هنا ٠٠ ولـــكن المستشفى تقل به الخدمة طوال أجازة عيد الميلاد ٠٠ الكل هنا يصر على الأجازة ٠

قلت :

ـ ماذا أفعل !

قالت :

ـ لابد أن تخرج ٠٠ هذا من أجل شفائك ٠٠ اذا بقيت هنا لن تشفى ٠

قلت وأنا أعلم أنها تدرك حالتى جيدا :

ـ اقذفوا بى من النافذة ·

اقتربت منى وهى تبتسم ، وقالت فى ود :

ـ لن أدعك وحدك ·· فقط حاول أن تتماسك وتنفذ تعليمات أخصائية العلاج الطبيعى وسوف ترى ماذا نفعل ســـويا فى هذا الأمـــر ·

فى الصباح جاءت الاخصائية ، قالت فى أمر :

ـ لماذا ترقد هكذا ·· أين ملابسك ؟

ضحكت ، تناسيت آلامى ، ونظرت اليها لكى أرى وجهها ، لاحظت أنها شديدة احمرار الوجه ولا تبتسم · ببرود شديد قالت :

ـ يجب أن ترتدى ملابسك كاملة ··

قلت وأنا أكتم غيظى :

ـ كيف ؟

يبدو أنها جاءت من عالم آخر ، أية ملابس تسأل عنها هذه المجنونة ·· ولكن المجنونة قالت :

ـ هل جئت من بلدك هكذا ؟

قلت صـــادقا :

ـ نعـــم

تلفتت حولها فى دهشة ، ثم اعتدلت وهى تقول :

ـ فى الغد يجب أن أراك فى ملابسك الكاملة ·

انصرفت ، جاء محمد بطعام الغداء ، لم أعد أهتم بالأيـــام ولا بالساعات ، أعرف أن الصباح جاء عندما أسمع غناء الاسبانية المكلفة بالنظافة وأعرف أن الظهر قد حان عندما يأتينى طعام الغداء

ويحضر محمد المغربى لكى يساعدنى على ابتلاع بعض الحســاء ، وأعرف أن الساعة [illegible] عندما تحضر الممرضة وتقوم بعمل القياسات الطبية [illegible] رئيسة الحكيمات وهى تنصرف وتحضر زميلتها لكى تسألنى عن حالتى [illegible] بعد ذلك ، أخى يصرخ فى التليفون الذى يمسكه لى محمد المغربى معلنا غضبه من كل خطوط الطيران التى سدت فى وجهه كل الطرق وأيضا جبال الثلج التى حاصرته فى منزله ولم يعد قادرا على الخروج منه ·· تصمم شارون على [illegible] خلال عيد الميلاد ثم أعود بعده ·· ومن التليفون سـمعت صوت سيدة مصرية ، سألتنى عن حالى وهى تخبرنى أنها تعرفنى جيدا ·· كان صوتها جميلا قلت لها : هل تعلمين مذيعة باذاعة القاهرة ·· ؟ ضحكت وقالت : لا ·· أنا فقط [illegible] بحالتك وأعرف أنك بدون مرافق ·· فى الصباح سيصلك زوجى ومعه صديق مصرى ·· أما اليوم فسوف يتصل بك (جـلال) لكى يسألك عن كل طلباتك بعد قليل وضعوا السماعة على أذنى وسمعت صوت جلال [illegible] أخبرونى أنهم جميعا حولى من الآن ·· أكد أن أحد الأصدقاء سوف يكون بجوارى ابتداء من غد ·· وأشرقت الشمس ··

عندما جاء محمد المغربى بالطعام ، كان يدخل الى حجرتى رجل نحيف الى حد ما يبتسم فى ود ، اقترب منى ونظر فى وجهى وردد اسمى ، أومأت له بالايجاب ، جلس ثم راح يقـرأ فى اهتمام كل الأوراق المعلقة على سريرى ، ثم راح يرتب الحجرة ، ويعيد تنظيم درجات الحرارة [illegible] فتسرب الهواء البارد الى وجهى ، شعرت ببعض الانتعاش كان يتحدث وهو يتحرك فى سهولة ويسر من حولى ·· أعاد وضع بعض الأشـياء فتح الثلاجة وأحضر عصيرا مثلجا وساعدنى كى أشربه وكان يحكى عن نفسه وأسرته ، مصرى يقيم مع زوجته التى تعمل فى احدى بعثات أعمالنا فى لندن ،

ابنته الوحيدة فى مدرسة ألمانية هنا بلندن ٠٠ كان أحــد قواد قواتنا المسلحة سابقا ، حارب فى يونيه وأكتوبر ، عاش حصـار الجيش الثالث ٠٠ عرفت بعد ذلك الكثير من التفاصيل فى الأيام التى تلت ذلك ، كان يحضر فى الظهر تقريبـا ويظل معى حتى يطعمنى العشاء ويتأكد من كل شىء ، أصبحت تحت رعايته تماما يتعاون مع شارون وكأنهما أولياء أمرى ٠٠ لم يعد لى رأى فى شىء ٠٠ الحمام كل يوم تحت اشرافه أو اشراف شارون كل يوم يردد بعد أن يطالع أرقام الأوراق المدونة أننـا نحقق نصرا أو أننا نزيل المتاريس من حول الصحة ٠٠ ويسـألنى فى أمور الدين ، أتكلم بما تسـعفنى به الذاكرة ٠ ينصت فى اهتمام عرفت أن اسـمه عمرو ، محاولات شارون لاخراجى من المستشفى تسير فى خطوات ناجحة تتزايد صرامة أخصائية العلاج الطبيعى وأوامرها التى يجب أن تطاع ، تحايلت على مسألة الملابس ، (عمرو) وجد عباءة كانت ابنتى وضعتها فى حقيبتى ، لفنى بالعباءة وعندما سألتنى للمرة المائة عن ملابسى أشرت الى العباءة وقلت فى اصرار :

ـ هذا هو زينا الوطنى !

رضخت وراحت تحاول أن تجعل جسدى يتحرك أو يستجيب للحركة ٠

كان (عمرو) ، يتابعها باهتمام كما يتابع كل الممرضات خلال عملهن كأنه متخصص وعندما سألته عن تخصصه ضـحك وقال :

ـ أنا رجل عسكرى لا أفهم الا فى الحرب والقتال ولكن عملى كقائد جعلنى أهتم بكل شىء ٠٠ وأنا الآن أخوض معركة مرضك ٠٠ ناولنى كوبا من العصير ثم حدثنى عن اجـراءات خـروجى مـن المستشفى وأهميته ٠٠ ثم قال :

ـ بعد أيام سيكون احتفال عيد الميلاد فى مسكنك بلندن ،

لاحظ دهشتى ، قال فى ود :

ـ كل شىء قد تم ترتيبه ·

راحت شارون تعاون أخصائية العلاج الطبيعى ، كانت شارون تنزع من صدرى الأسلاك قطعة قطعة كل يوم ، وكان (عمرو) يحضر هذه العملية التى كان يصاحبها الكثير من الآلام ··

فاذا انتهت شارون من رفع أحد الدبابيس ، ردد (عمرو) :

ـ نجحنا فى ازالة بعض المتاريس ··

ينتابنى الاحساس بالخوف ، ثم تجىء لحظة المباغتة ، أشعر أننى غرقت فى جب عميق حالك الظلمة ، أسمع أصواتا مضطربة ، ثم اتنبه الى وجه (عمرو) وقد صار شاحبا ، يردد اسمى ، أحرك جفونى مجيبا ، تذهب الحكيمات بعيدا ·· يجلس عمرو بجوارى وهو يردد بصوت واهن :

ـ الحمد لله

أسأله مستفسرا ، لايجيب بسرعة ، يذهب أولا لكى يأمر بكوب من الشاى له وبكوب من العصير لى ، ثم يقول :

ـ حسبتك ··

لايكمل ، فى كل مرة لايكمل الجملة ، ولكنه يقول ان هذا الأمر تكرر ·· أخيرا قلت فى اعياء :

ـ وتصر على أنتخرجنى من هنا ؟!

قال فى حماس :

ـ نعم ·· ولقد وقعت الأوراق وتعهدت بما يجب عمله عند اللزوم ·

لا أدرى لماذا صدمتنى هذه الكلمة (اللزوم) ٠٠ جاء (سعد) وعبأ كل شيء في حقيبة كبيرة ، ثم جاء جلال تسبقه ضحكاته وهو يدفع أمامه بمقعد متحرك ٠٠ جاءت (شـــارون) وبكت بدموع حقيقية ، أخذت تردد أوامرها على الرجـــال الثلاثة ، وتشرح لهم الأدوية ومواعيدها ، وما يجب فعـــله ، (عمرو) يكتب ما تقوله شارون ، وسعد يردد خلفها ، وجلال يتصل بالدكتـــور الجراح ليخبره بأن الأمر تحت التنفيذ ، علمت فيما بعد أن الجراح وصديقه الودود ، حملنى الرجال الثلاثة ومعهم محمد المغربى الذى كان يبكى هو الآخر لفراقى ، وضعت شارون يدها على صدرى ، تأكدت من سلامة الجرح ، ثم أمسكت بيدى بعد أن استقر جسدى على المقعد المتحـرك ٠٠ قالت :

ـ سوف آتى اليك فى مسكنك الجديد ٠

سألت فى لهفة :

ـ غـدا ؟

قالت بصوت يغلبه البكاء :

ـ بل الأسبوع القادم ٠

قال محمد المغربى :

ـ وأنا أيضـــا ٠

قال (عمرو) آمرا :

ـ تحركـــوا ٠٠ بعد أســـبوعين سيعود الى هنـــا لـــكى تقرروا له الســـفر الى بلده ٠٠ هل حسبتم أنه ماكث هنا معكم الى الأبـد ٠

تحـرك المعقد يدفعه الرجال الثلاثة ، الممرضات والحكيمات فى قسم الحالات الحرجة يودعننى بحرارة ٠٠ اسمى يتردد فى جنبات القسم على ألسنة الممرضات ، لم أكن أعرف أن هذا العدد

الكبير من العاملات بالمستشفى يعرفن حالتى واســـمى ويسرعن لتحيتى ٠٠ أذكر ان طبيبة الأشعة فوق الصوتية قبلتنى على خدى ٠٠ العملاق الذى كان يحملنى الى غرفة الأشعة يرفع يده بالتحية مبتسما ، قدمت لى فتاة صغيرة زهرة رقيقة بيضاء ٠٠ اندفعت سيدة مسنة كنت أسمع صوتها دائما وهى تصلى من أجل ولدها الراقد فى الحجـــرة المقابلة لحجرتى ٠٠ راحت السيدة تهز يدى بحرارة ٠٠ لفحنى هواء الممر الخارجى للمستشفى ٠٠ كانت سيارة جلال تقف هناك ٠٠ تعاونوا على حملى لـــكى يضـــعونى على المقعد الخلفى ، يبدو سعد رقيقا وودودا ، تذكرت خالى وحسبت أنه هو ، ومضت السيارة الى حيث أسكنونى مسكنا فى وسط لندن ٠٠ وهناك أشرقت الشمس ، ولم يتركنى (سعد) ليلا ولا نهارا ، كان هو الآخر أحد قوادنا الكبار فى حرب أكتوبر ثم تقاعد ، لو كانت أمطار لندن مدادا لكى أكتب كلمات الشكر والحب التى يستحقها هذا الرجل لنفدت الأمطار قبل أن أفى هذا الرجل حقه ، لقد حملنى على رأسه ، وصار لى ونيسا وجليسا وصديقا وخادما ٠٠ وتسابق معه عمرو ٠٠ ثم تسابق معهما أبنـــاء مصر فى لنـــدن جميعا ٠٠ يحيطون بى فى حب لم أكن أعرفهم من قبل ولكنهم جاءوا من كل صوب يلتمسون عنـــدى بعض الحب لمصر ٠٠ وتوارت الآلام مع ابتسامات أبناء بلدى ٠٠ مصر ٠٠ مصر ٠٠ يابلادى ٠٠ لك حبى وفؤادى وقلبى المجروح يطير ، يعبر الوادى ويقبل تراب مصر ٠

كان يقضم التفاحة عندما لمحها منطلقة نحو الدار محمود الجيزاوي ، توقف فمه عن المضغ وتوقفت عيناه عند عتبة الدار ، وعندما رفعت قدمها اليمنى لتتخطى عتبة الدار ، انتابته رجفة بعدها لم يعد هو حميده (الجلف) كما كانوا يطلقون عليه ، أمسك برقبتها وصرخت عيناها فى رعب وانحشر لسانها بين أسنانها .. ثم انسكبت من بين يديه على الأرض ، تلفت حـــوله ووجـــدهم يحيطون به ، حاول أن يفر .. كان [illegible] بنفسه [illegible] المخاقية [illegible] وأحس بالأيدي تتدافعه ، [illegible] قالت [illegible]

— خذ .. كل .

أخذها ، نور تبيع التفاح وأشياء أخرى ، وهو يراها ويتابعها ولكنها كانت دائما تضحك له وتدس فى يده شيئا ما ، يأكله فى تلذذ ، قال له صبحي البقال :

ـ تزوجها يا حميده ٠

وتزوجها ، يتيمة لاتعرف الا العمـــل فى بيوت الأكابر ، يلمحها في الصباح عندما تدلف الى بيت أم هاشم ويرقبها فى المساء وهى تملأ الجرة من ترعة (الجراوله) تروح وتجىء وهى صامتة ، عندما أمسك بها ووقف معها أمام المأذون ، كانت صامتة ٠٠ والآن هى ـ أيضا ـ ترقد صامتة ، دفعه المرزوقى الخفير صائحـــا فى دهشـــة :

ـ أنت أيضا تعرف القتل !

القتل ، الموت ٠٠ من الذى مات ، انه فقط أراد أن يؤدبها أن يقول لها (عيب) ، أليس ما تفعله يسمى عيبا !

ـ اسمك وسنك ؟

حميده ٠٠ لا يعرف الا هذا الاسم ٠٠ قال له المأذون ان الأوراق كلها جاهزة نظر اليها وابتســـم ، أحس أنه يجب أن يتظـــاهر بالشراسة ، نظر الى صبحى البقال وهو يدس الأوراق فى جيبـــه الداخلى ، ابتسم صبحى وقال لنور :

ـ لاتفرطى فى هذا البغل ٠

ضحك ، رغم أن الكلمة التى قالها صبحى صدمته ، ما كان يجب أن يقولها أمامها ، ولكنه ضحك ، ضحك من كل قلبه ، ضحك الآخرون بصوت عال ، ضحك المأذون اندفع هريدى ومعه أكواب الشربات ، شربوا وهم يضحكون ثم راحوا يتهامسون ، توقف هو عن الضحك ، تلفت حوله ثم حملها بين يديه كانت صامتة ٠

ـ لماذا قتلتهـــا ؟

هذا الرجل الذى يجلس أمامه يقول كلاما غير مفهوم ، انها فقط صامتة لم يقتلها ، انه يعرفها جيدا ، عندما كانت تدور فى

الشوارع لتبيع التفاح كانت تسير وهى صامتة ، وعندما كانت تذهب بالجرة الى (ترعة الجراولة) كانت أيضا صامتة ، وعندما وقفت أمام المأذون لم تنطق بحرف ـ كان وجهها مخبأ فى ياقة الجلباب ، وعندما حملها وانطلق كانت أيضا صامتة ، وصمتها دائم ، فى الحركة والسكون ٠

ـ مادفعك الى قتلهـــا ؟

اندفع داخلا الدار ، كان قد تذكر طاقيته السوداء ، الرجال فى الحقول كانوا يسخرون من الطاقية السوداء ، ولكنه احتفظ بها ، أعطتهـــا له (ســـــيدة) ، المرأة التى تبيع الكتاكيت ، قالت له :

ـ خذ يا حميده ولا تخلعها عن رأسك ٠

كان صبحى البقـــال اذا غضب على امرأته يقذف بطاقيتـــه البيضاء فتسرع اليها زوجته وتحضرها له وهى تمسح عنها فى لهفة كل ما علق بها من تراب ، وتضعها على رأس زوجها وهى تنتفض من الخوف ، ويلهث لسانها بكلمات الأسف ، وصبحى البقال يزأر مثل الثور الهائج وامرأته ترتعش ، تتضاءل ، تذوب عذابا ، ويرى هو هذا كله ويبدو مبهورا ، ومتهورا أيضا ، ينزوى فى ركن من الدار ويظل يومه كله حزينا ، وعندما يحل الظلام ينفجر باكيا حتى اذا هده التعب نام ، وفى الصباح كان يرى صبحى البقال فى ملابس بيضاء نظيفة ، وجهه مثل طبق العسل الأبيض ، ويرى زوجتـــه تدور حوله باسمة سعيدة ، فاذا نظرته استدارت اليه وأعطته رغيفا طازجا ويجرى بالرغيف يأكله بعيدا ٠٠ بعيدا ويحلم بها زوجة له ٠

ـ هل ماقاله صبحى البقال صحيحا ؟

قال له تزوجها يا حميده ، وقد فعل ، أخذه صبحى البقال من يده وأجلسه أمام الحلاق ، ثم دفع به الى بئر الساقية ، حتى

اذا ما ظهر طافيا ، ألبسه جلبابا جديدا ، وسحبه من يده وأجلسه أمام المأذون ، وأحضروها ٠٠ كانت ترتدى ثوبا أحمر ، وفى قدميها حذاء ، والشال الأبيض يموج على رأسها ٠٠ أحس بالسعادة أقسم أن يضربها ٠٠ وأن يقذف بالطاقية السوداء الى الأرض ، قال صبحى البقال :

ـ لم أستطع انتزاع تلك السوداء من على رأسه ٠

ضـــحكوا وحاولوا ، واستمسك هو بطاقيتـــه واصراره ، تركوها له ، وضحكوا عندما رفعها وحملها بين يديه ، وخرج مسرعا ولكنه نسى الطاقية السوداء ، تذكرها عندما أراد أن يتوضأ من ماء الترعة ـ وضع يده على رأسه أحس بخشونة شـــعره ٠ استدار مهووسا ، داخل الدار رآها ترقد وهو فوقها ، زام ، زاغ بصره ، دفعه الرجل بعنف وفر هاربا ، وظلت هى راقدة صامتة ٠

ـ انطق يارجل ٠٠ هل أنت أبكم ؟

قال لها ٠٠ الماء يجرى فى رقرقة سعيدة منســـابا من فتحة « الخزان » ، تتلاطم موجاته صغيرة ، تعبث بأعواد القش الهشة ، تدفعها ، تقاوم وتدور متشبثة بحافة القناة ، ولكن الموجات تدفعها ثانية ، فى دوامة تتحرك الأعواد ، تستسلم للموجة ، تتأرجح معها ، تهدهدها الموجات المتتالية خرير الماء يخبره بأسرار الحب ، وهو أيضا يبوح بحبه ، يانور ٠٠ مثل خرير الماء صوتك ، مثل شواهق الموج صدرك ، يسمع صوت عصافير القمح ـ يعلم أنها تناديه يهب واقفا ، يرفع الماء بيديه يذروه فى الهواء ، لتشرب عصافير القمح ، ولتسمع أنه يحب (نور) ٠٠ يأتى فى المساء ، أعطاه اليوم صبحى البقال أرغفة وحلوى ٠٠ قال له :

ـ بعد أن تأكل سوف أراك هنا ٠

يحدثه عن عوالم غريبة ، لها أسماء عجيبة ، ويضحك صبحى البقال عندما يسأله حميدة :

ـ لماذا فعلوا كل هذا ؟

ـ أنا أسألك أنت !

الرجل لايزال جالسا ينظر اليه فى غضب ، صبحى البقال كان ينظر اليه بغضب ويقول :

ـ أنت لاتفهم شيئا ..

بل انه يفهم ، الماء يجرى فى النهر البعيد والترعة تنبت منه وتأتى لنا بالماء الذى يحمل الأعواد الصغيرة الجافة الى القنوات الصغيرة والعصافير لاتتعارك وتدور حول رأسه فيقذف اليها بالماء لكى تشرب ، هو يسمع صوت الماء والعصافير وأحيانا يسمع صوت أعواد البرسيم والقمح ، عندما يقطعون أعواد البرسيم يرى دموعها ، يحس بآلامها ، يرقد عليها كى يلامسها ، لايريد أكثر من ذلك ، يأخذ (نور) بين يديه يهدهدها كما تفعل الموجات الصغيرة بالأعواد الصغيرة ، يلملم شعرها وتسبح أصابعه فوق موج شعرها ، يلمسها ، يحبها .. يريد أن يصرخ ولكنه لايقدر ، كانت مكومة على الأرض ، تجذب جلبابها المنزوع تحاول أن تتداخل ، كانت الفأس تلمع فوق رأس عبد العال وهو يرفعها لكى يقتل جذور البرسيم ، وفى كل مرة تموت جذور ، وتشهق جذور أخرى ، يريد أن ينتزع الفأس من يد عبد العال ، يريد أن يسأله لماذا تفعل هذا ، يريد أن يسألها لماذا تسقى عصافير النار ولا تكتفى بعصافير الجنة ، .. شهقت ثم مالت رأسها الى أسفل .. انها لاتريد أن تجيبه ، لم يسألها مرة واحدة فى عمره كله ، كان ينظر الى عينيها وكانت هى تنظر الى الأرض .. وهرب الرجل ، قفز ولم يشعر بشىء بعد ذلك .

ـ هل ما يقولونه صحيح ؟

من ؟ .. الرجال الجالسون عند صبحى البقال يضحكون ، يتلامزون ، يهتكون أسرار الآخرين ، فاذا جلس الآخرون هتكوا أسرار

الأولين ، وصبحي البقال يعرف ويحكى له عن أقوام غير هؤلاء وهؤلاء ·· ويضحك هو لأن صبحي البقال لايعرف كل شيء ، وهذا الرجل الجالس أمامه لايعرف كل شيء ·· وهو وحده الذى يعرف

ـ انطق ·· لماذا قتلتها ؟

انه لم يقتلها ، فقط أراد أن يسألها السؤال الذى يحيره : لماذا يقتل عبد العال جذور البرسيم وهى خضراء ، ولماذا تسقط أعواد الحطب الصغيرة فى الماء ·· ولكنها تلوذ بصمتها ، منذ أن أخذها بين أحضانه أول مرة وهى صامتة ، لاتريد أن تجيبه ، ولكنه يعلم أنها سوف تخرج عن صمتها ذات يوم وتقول له ·

لماذا أخفت عنه الطاقية السوداء ، ولم تضعها على رأسه فى صباح ذلك اليوم ·

٠٠ ورأيتنى طائرا

قلت اننى أشعر بالجوع ، جلس قبالتى ونادى على الغلام الذى جاء مسرعا حتى اننى ظننت أنه كان يقف خلفنا ، همس اليه فأسرع الغلام مبتعدا ، قلت اننى يجب أن أعتذر وأنى أبدى أسفى الشديد لحضورى المفاجىء ، همس ببضع كلمات ثم قام واقفا ، تحرك نحو اليسار ومضى ٠٠ ظللت أرقب جسده الطويل حتى اختفى ، بدأت أنظر حولى ، راعنى اتساع الحجرة وكنت أظنها أقل اتساعا ، بل عندما دخلتها أول مرة كانت ضيقة بشكل واضح ، رأيت بعض صور لنباتات ذات أشكال هندسية ، ليست لها صلة بنباتات رأيتها من قبل ، ولا خطرت لى فى أحلامى ، اقتربت من احداها وكنت أظن أنها شجرة تفاح ، لا أدرى لماذا يجذبنى التفاح رغم أننى أحب حبات العنب الأصفر وهى تتلألأ فى الاناء كالبلورات الرقيقة ٠ مددت يدى ٠٠ لم أجد الا الفراغ ، لسعتنى المعرفة بالفراغ ، ودرت حول نفسى ، قلت لماذا لم يحضر الرجل ، انفتح الباب دخلت خادمتان ،

لا ٠٠ بل فتاتان كأنهما من الحور ، قلت مبتسما أنا أدعى سعيدا ، وضعت الفتاتان الطعام على مائدة ، نظرت نحوى الأولى وأشارت الى الطعام ، أما الأخرى فأعدت لى مقعدا وأشارت اليه ، ثم توقفتا عن الحركة ٠ اقتربت من المقعد وجلست ، أو هكذا تخيلت أننى جلست وما جلست ، قلت لا أشعر بالراحة ، أشارت الثانية برأسها موافقة ، دخلت فتيات أخريات رحن يعدن ترتيب الأشياء ، أخذن الأشجار بعيدا ، وضعن أحواض الماء الملون ، ودخل الرجل ، قال : هل أكلت وارتويت ؟ ، قلت نعم ، أشار بيده ، رفعن الطعام الذى كان والموائد التى لم أشعر بها ، قال : اجلس واستمع ، اقتربت الفتاتان من كتفى ، قالت الأولى :

ـ ان العشق نار تأكل الرأس أولا ثم تأتى على بقية الجسد ٠ وجدت أن القول بدا لى مقبولا ، قالت الثانية :

ـ الرجل الذى يسعى لايجب أن يتوقف حتى لاتأكله نيران الأرض ، وجدتنى أكثر اندفاعا نحوها من الأخرى ، كانت سمراء خمرية ، شعرها الأسود يبدو لامعا وطويلا كاد وجهى يلمسه ، قلت :

ـ أنت نار ٠

قالت : تمهل ففى حضرة الرجل لا يجب أن تتكلم ، قلت : ومتى أقول ما فى قلبى ؟

قالت : دع قلبك هو الذى يتحدث وقت ما يشاء ، نظرت نحو الرجل كان يرفع كوبا نحاسيا نحو فمه ، قلت : ظمآن أنا ٠

اقتربت منى الفتاة الأولى وناولتنى كوبا زجاجية ، رأيت الماء رقراقا بداخلها ، وحبات كالثلج تبرق على حوافها ، أمسكت بالكوب وشعرت بيدى لاتقدر على حملها ، رفعتها بصعوبة الى فمى ، ولكن لاماء هناك ولا ثلج ، قلت فى انزعاج :

ـ مالى لا أرى الأشياء ولا أحسها كما ينبغى ؟

قال الرجل :

ـ يجب أن تصعد السلم ·

قلت :

ـ وأين هو السلم حتى أصعده ؟

قال :

ـ فى قلبك ·

كانتا قد انصرفتا ، واختفى الطعام والشراب ، وبقيت الحجرة خالية وكذلك جوفى خاليا ، نظرت حولى ، فاذا بعيدان من اللؤلؤ تدخل النافذة ، وأسلاك من ذهب يبرق تسير فى اتجاه الحوائط حتى تشابكت عليها ، وتمددت عقود اللآلىء على أرض الغرفة ، وجاءت الفتاتان وقدمت لى الأولى طستا من فضة وقدمت الثانية أبريقا من ذهب وقالت :

ـ اغتســـــل ·

أدرت رأسى باحثا عن الرجل ، كان قد اختفى ، قلت هامسا للفتاة الثانية وقد شعرت بها فى قلبى :

ـ هل أستطيع أن أفصح لك مايدور فى عقلى ؟! لم ترد ، ابتسمت وأخذت الابريق الذهبى من يدى ، وسـحبت الأخرى الطست ·

تمددت على الأرض لامست اللآلىء جســـدى ، وكان توهج أسلاك الذهب يؤذى عينى · شعرت بالراحة وأنا أغمضهما ، رأيت سحابا أبيض ، ورأس أسد ، وذيل فأر ، ثم رأيتنى وأنا أركب السحب ، وطارت بى السحب الى أعلى ، ورأيتنى سعيدا ، ابتسمت وأنا راقد ، لم أدع أسلاك الذهب على الحائط تسرقنى ، وعدت الى

نفسى أرقبنى وأنا أصعد فى السماء ، والسحب الصغيرة تجــرى لاهية ، والكبيرة تسير الهوينى ، ومن أســفل تبدو الجبــال صغيرة ، قميئة ، بعضها يبدو أسود ، والآخر يبدو أصلع لا رأس له ، ثم المدن بشوارعها الطويلة المشقوقة بين صفوف المنــازل ، وسيارات صغيرة تبدو مثل لعب الأطفال ، واختفت المدينة مسرعة ، وجاء زرع أخضر ، يمتد لمسافات طويلة ثم مسطحات مائية ، ثم جبال عليها زروع وأعناب ، ومحطات للقطارات ، وطرق سريعة ، وبحيرات بها أشرعة شمعية تبرق تحت الشمس ، ثم رأيتنى أسقط فجاة ، ورأيتنى وأنا أدخلنى ، صرت واحدا ، شــعرت بدبيب الأقدام ، قلت فى ضراعة :

ـ ظمآن !

جاءت الفتاتان ، قلت للأولى :

ـ اذهبى الى الرجل فأنا ضيفه وأريده أن يجالسنى ٠

لم تذهب ، قلت للثانية المعشوقة :

ـ العشق نار ، وقلبى يحترق ٠

قالت :

ـ لقد رأيته وهو يحترق ٠

قلت والأمل فى التواصل يدب فى عروقى :

ـ اذن أنت تعرفين ٠

قالت وهى تضمع فى فمى حبة حنطة جافة :

ـ أعــرف ٠

قلت وقد شعرت بمرارة حبة الحنطة الجافة :

ـ وهل قلبك مثل قلبى ؟

قالت منصرفة :

ـ لا ٠

صرخت ، وجاء الرجل ، وجلس عند أطراف قدمي وقال :

ـ قالوا لى انك غاضب ·

قلت مبتسما :

ـ أنا ضـــيفك ·

قال ضاحكا فى انبهار :

ـ هذا كرم منك ، فأنا الضيف وأنت صاحب الدار تلفت حولى ، حاولت أن أتذكر ، قلت لنفسى يجب أن أسايره أى فائدة للعقل ، ماذا فعل العقل للناس ، أنا شخصيا لا عقل عندى ولا داعى أن أناقشه من منا الضيف ومن منا صاحب الدار ، قلت :

ـ هل أكلت ؟

قال راضيا :

ـ وشربت وسعدت بكل شيء ·

قلت :

ـ أتعجبك اللآلىء وعيدان الذهب ؟

قال :

ـ وهل آخذ منها ما أريد ؟

قلت :

ـ نعم ، فقد جاءت من النافذة ، من حيث لا مكان ·

قال :

ـ حسنا ، سأجمع بعضا منها ·

قام وأخذ قدر طاقته وانصرف ·

ولكن الأســــــلاك لم تنفد ولم تنقص بل زادت وغطت كل مساحات الحجرة ، وازدادت عقود اللؤلؤ ، وتكومت فى أكوام مثل الجبـــال الصغيرة ٠

أردت النوم ، ولكن النوم امتنع عنى ، أخذت أغنى ، ورفعت صوتى ، قلت ان الظلام لم يحل بعد ، وان الشمس جالسة عند قدمى وأنا سعيد بذلك ٠

جاء الرجل وقال فى ابتسامة مشرقة :

ـ هل يمكننى أن آخذ المزيد من الأسلاك الذهبية وعقود اللؤلؤ ؟

قلت فى صدق :

ـ خذ ما استطعت ٠

قال :

ـ سألتنى الجارة أن أعطيها فأعطيتها ما أخذت فى المرة السابقة ٠

قلت فى حماس :

ـ ولماذا هى وحدها التى تأخذ ، وزع يا رجـــل كل ما فى الحجـــرة ٠

قال :

ـ وهل لا نترك لك شيئا ؟ ٠

ـ لا ، لا داعى ، فقط دعونى ثم ، قال :

ـ ألم أقل لك ادخل الى نفسك ؟

قلت : لا أجد لذلك وسيلة ؟

قال : بل هناك الف وسيلة ولكنك لاتريد ٠

قلت فى خجل :

أنا أعشق الأخرى ٠

قال فى ابتســـامة واثقة :

ـ كلنـــا يعرف ٠

قلت في ثورة :

ـ هي تعرف وأنت تعرف وجميعكم يعرفون ، ثم ماذا ؟

قال :

ـ يجب أن توافق أنت ٠

قلت فى غيظ :

ـ يارجل كنت أظنك حكيما ، أنا أعشقها قلت لك ٠

قال :

ـ هذا لايكفى ٠٠ العشق وحده لايصنع شيئا ٠

قلت مشيرا الى اللؤلؤ والذهب :

ـ وهذا ؟

قال :

ـ وهذا أيضا لا يصنع شـــيئا ، ابحث داخل نفسك ٠ وجمع الرجل ما جمع ، وما نفد ما عندى من لؤلؤ وذهب ، وصرخت ، وتمدد جسدى طولا وعرضا ، وملأ جسدى الحجرة ، ورأيتنى وقد احتويت المكان كله ، ثم رأيت فتيات صـــغيرات يصـعدن فوق جسدى ، ويسيرن ، كن يتضاحكن ، وكل واحدة تزرع فى جسدى نباتا ذا شوك ، وسمعت احداهن وهى تحكى كيف انفردت بالغلام وأخذت منه قبلة ، وتســـارعن جميعا والتصـــقن بها كى يسمعن بوضوح ماذا حدث بعد القبلة ، كن وقوفا فوق صدرى ، وكان

تجمعهن فوق قلبي ، كان في امكاني أن أغضب صارخا ، ولكن تلهفت لسماع ماذا بعد القبلة الأولى من الغــلام ، كانت أيديهن ترتعش وشفاههن ترتعش ، وأرجلهن فوق صدري تدب في رتابة وهي تحكي ، وهن متشوقات ، وهي تصف كيف التصقت به ، وانتابها الخوف ودق قلبها وارتعاشات الحمى جعلتها مثل عود جاف على سفح جبل ذي ريح وأنا أيضا أعرف ، أعرف العشق ، وأعرف أن العشق نار تحرق القلب ، وأن القلب المحروق لايصلح الشيء ٠٠

ومددت يدي فلم تطاوعني ، وفتحت فمي فلم يطـــاوعني ، ورأيتني وقد تقازمت وصرت مثل نخلة صغيرة تطن ولا تطير ، وحولها آلاف الأرجل الثقيلة ، والأيدي ذات القفازات تنقض عليها ، ورأيتني أخرج مني وأذهب الى خارج الحجرات ٠

وكان الهواء ساخنا وساكنا ، والمنازل مهدمة والشوارع خالية ٠٠ ورأيتني أود البكاء ٠٠ ولكن لا أستطيع فتركتني ، وخرجت الى الخلاء ٠

أحلام رجل من عصرنا

ارتديت ملابسى كاملة ، وحاولت أن أبدو فى مظهر حسن ٠٠ كنت مرهقا ، ولكننى تحاملت على نفسى ٠٠ ذهبت فى الموعد المحدد ، وجلست أنتظره ٠٠ دقت الساعة معلنة الثامنة ٠ كانت الدقات تدوى بصوت قوى ورتيب ٠٠ نظرت الى ساعتى فى قلق ، كنت أظنني جئت في الموعد تماما ، لم يبق على صلاة العشاء الا قليل ٠٠ أحب أن أصلى جماعة فى مسجد قريب من دارى ٠٠ أشعر بالراحة وأنا جالس بين رفاقى فى انتظار اقامة الصلاة ، بعدها أسير على قدمى حتى أدخل دارى حيث أقيم بمفردى ٠٠ منذ أن أستولت فكرة الزواج على عقلى وأنا مقبل نحو تنفيذها فى جدية ٠٠ تحدثت مع بعض أقاربى ، وانتهى الأمر عند ابنة عبد السلام ٠٠ لم أكن قد رأيتها من قبل ، ولكن خالى أظهر ارتياحه لرأى زوجته ، وأيضا وافق عمى ٠٠ أرسلنا صديقا مشتركا واتفق معه على الموعد ، واشترط الرجل مقابلتى وحدى فى المرة الأولى ، وها قد حضرت ، فى الموعد تماما ، ولكنه لم يحضر ٠٠ قال لى الرجل الذى أرشدنى الى مكانى بحجرة الاستقبال ،

مشيرا الى المقعد الذى يتوســـط الحجرة : ـ تفضل وانتظر ..

ثم مضى .. حاولت أن أتأمل الحجـرة ، الحوائط خالية ، لها لون فاتح اقرب الى البياض ، المقاعد غير وثيرة ، بعض الكتب على مائـدة صـــغيرة .. قاومت حتى لا أعبث بالكتب ، مضـت الدقائق ، اللهفة للذهاب الى المسجد مثل كل ليلة تجعلنى قلقا .. انظر الى ساعتى كل حين .. اقترب موعد الصلاة ، ماذا أفعل .. دخل عبد السلام .. أبيض الوجـــه ، ذو لحية بيضاء .. ألقى السلام ، ثم جلس مطرقا .. أخذت أنظر اليه عله يتكلم ، قلت :

ـ جئتك كما أمرت ..

هز رأسه فى هدوء ، ثم احتفظ بصمته .. قلت :

ـ يجب أن الحق بصلاة العشاء فى المسجد ..

وقف ، وقفت والقيت السلام ومضيت ..

وفى اليوم التـالى جـاء من يخبرنى بضرورة مقابلة الرجل ثانية ، وحدد موعدا ، قاومت الرغبة فى عدم الذهاب ، وذهبت فى الموعد .. وجدته جالسا فى صدر حجرة الاستقبال ، وقف عندما دخلت ، واستقبلنى فى ترحاب واضح .. وعندما أجلسنى بجواره راح يطلعنى على مجمـــوعة من الأوراق .. كانت الأوراق تحوى أمورا تخصه ، وتصل الى درجة أسراره الشخصية .. تأملت وجهه الهادىء ، وهو يشرح لى ما فى الأوراق .. ثم دققت النظـــر فى تلك الأوراق ..

قلت : هذا أمر يخصك وحدك ، فلماذا تطلعنى عليه ..

قال : ويخصك ، لأننى سوف أطلب منك معروفا ..

وراح يشرح لى ما هو مطلوب منى .. كان على أن أدور دورة

كاملة فى دواوين العمـــل الحكومية ·· أقبلت على مهمتى بجدية شـــديدة ··

سألنى عمى فلم أخبره بالأمر ، اكتفيت بأن قلت اننى أقضى لعمى عبد السلام مهمة خاصة ·· لم يحاول عمى أن يستزيدنى ·· هز رأسه ، وقال : وأمر الزواج ··

قلت : لم تتناقش بعد ·

مضيت مسرعا الى دار عبد السلام ، قابلنى فى تجهم خشن ·· ولما رحت أقص عليه أمر مهمتى ، قاطعنى قائلا : كفى ··

ثم أخذ الأوراق ووضعها فى صندوق ، ثم ألقى به بعيدا فى اهمال ·· تململت قليلا ·

وقلت : والآن يا عمى ··

قاطعنى فى مودة جاءت فجأة ، ولكنها أدخلت السرور على قلبى ، وقال :

ــ ألك فى خير تفعله ··

قلت : أفعل ان شاء الله ··

قام وأحضر جوالا ثقيلا ، وضعه أمامى ، ثم أعطانى مظروفا كتب عليه اسما وعنوانا ، وقال مشيرا الى الجوال : اذهب بهذا الى ذاك العنوان ··

حملت الجوال على كتفى ، كان ثقيلا ، ووضعت المظروف فى جيبى ·· وعنـدما هبطت وضعت الجوال فى سيارتى ، وأخذت أقرأ العنوان ·· بلدة لا أعرفها ، ومكان لا أعرفه ·· يجب أن أسأل الناس ، وسألت ·· اذهب شمالا ، ثم يمينا ، ثم در الى الخلف ·· فعلت ·· اذهب حتى رأس الطريق المؤدى الى النهر ، ثم أعبر ذلك

النهر ، وعندما تفعل ستجد رجلا يدلك ، فعلت ٠٠ وحملت الجوال على كتفى ٠٠ أشار الرجل الذى يقف عند نهاية القارب الى طريق بين جبلين ٠٠ الطريق ضيق ، رحت أسير ، والتعب يهدنى ٠٠ تحاملت ٠٠ جاء الليل ولم أصل الى مكان معلوم ٠٠ أخذنى النوم بعد أن غالبته كثيرا ، وعندما صحوت للصلاة كانت الشمس قد فرشت الأرض ، ورأيت رجلا يجلس ، وعندما سألتى دلنى على ممر ضيق يخرج من الطريق الذى كنت أسلكه ٠٠ ومضيت حاملا الجوال على كتفى ٠٠ وفى نهاية اليوم العاشر وجدتنىعند حافة احدى القرى ٠٠ تجمع الأطفال من حولى ، فى فضول ٠٠ سألت أحدهم ، اصطحبنى الطفل الى دار صغيرة فى طرف القرية ٠٠ وعندما بلغتها وأنزلت الجوال ، جاءنى رجل كهل وقدم لى طعاما وهو يردد كلمات الشكر لله ٠٠

عدت الى مدينتى ٠٠ قالوا ان الرجل سأل عنك ، ويريدك أن تأتيه منزله بعد صلاة العشـــاء ٠٠ ذهبت ، قال فى مودة : ما الذى أخرك عنا ٠٠

اكتفيت بالابتســام ٠٠ لم أكن فى حالة تسمح لى بالكلام الكثير ٠٠ قال :

ـ رأيت أن أعطى زوج ابنتى الكبرى نبتا من الرياحين لا ينمو فى بلادهم ، فهل تأخذه اليه ٠٠ أومأت برأسى موافقا ٠٠ كان ذهنى مشتتا ، وتبخرت من عقلى فكرة الزواج ٠٠ فى نفس الوقت الذى شعرت فيه بالسعادة وأنا أطيع الرجل ، قام وأحضر النبات وأخذ يشرح لى طرق رعايته حتى أصل به سليما الى زوج ابنته فى المدينة البعيدة ٠٠ كان شرحه وافيا ٠٠ بهرتنى كثرة المعلومات التى يلقيها هذا الرجل ٠٠ كنت أظنه أميا لايقرأ ٠٠ وقبل أن أســـأله ، سألنى هو ٠٠ وأخذت أردد على مسامعه ما وعيته ٠٠فاذا ما أخطأت،

أعاد على سـمعى ما سبق أن قاله ، حتى تأكد من اسـتيعابى لكل ما قاله ٠٠

وانطلقت ٠٠ كان على أن أخترق أماكن كثيرة ، وأن أتوقف لكى أعتنى بتلك النبتة الصغيرة ٠٠ وأخذت رعايتى لتلك النبتة منى وقتا غير قليل ٠٠ وكلما مضت الأيام ازدادت العناية بالنبتة٠٠ فقد كان الطريق وعرا ، والسيارة تشق ذلك الطريق بصعوبة ٠٠ كما أن الماء كان شحيحا ، ولكنى داومت على العناية بتلك النبتة التى كانت مصدر سعادة لى وأنا أشـق هذا الطريق ٠٠ وعندما أعطيت النبتة لزوج ابنة الرجل ، كانت قد صارت نباتا ذا رائحة فواحة جميلة ، حتى اننى جلست يوما كاملا أتأملها وقد صارت مكتملة النمو فواحة الرائحة ٠٠

وعدت ٠٠ قال الرجل : موعدنا بعد ثلاثة أشهر ٠٠

وعندما عدت اليه بعد الأشهر الثلاثة ، وجدت حفل عرس مقاما ٠٠ والرجل فى أول البيت يرحب بى فرحا سعيدا ٠٠

وجلست بعد ذلك أفكر ٠٠ لماذا فعل هذا الرجل بى ما فعل٠٠

النقابة العمالية / ابريل ١٩٩٠

فهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٣٢٠٨/١٩٩٥

ISBN — 977 — 01 — 4316 — 2